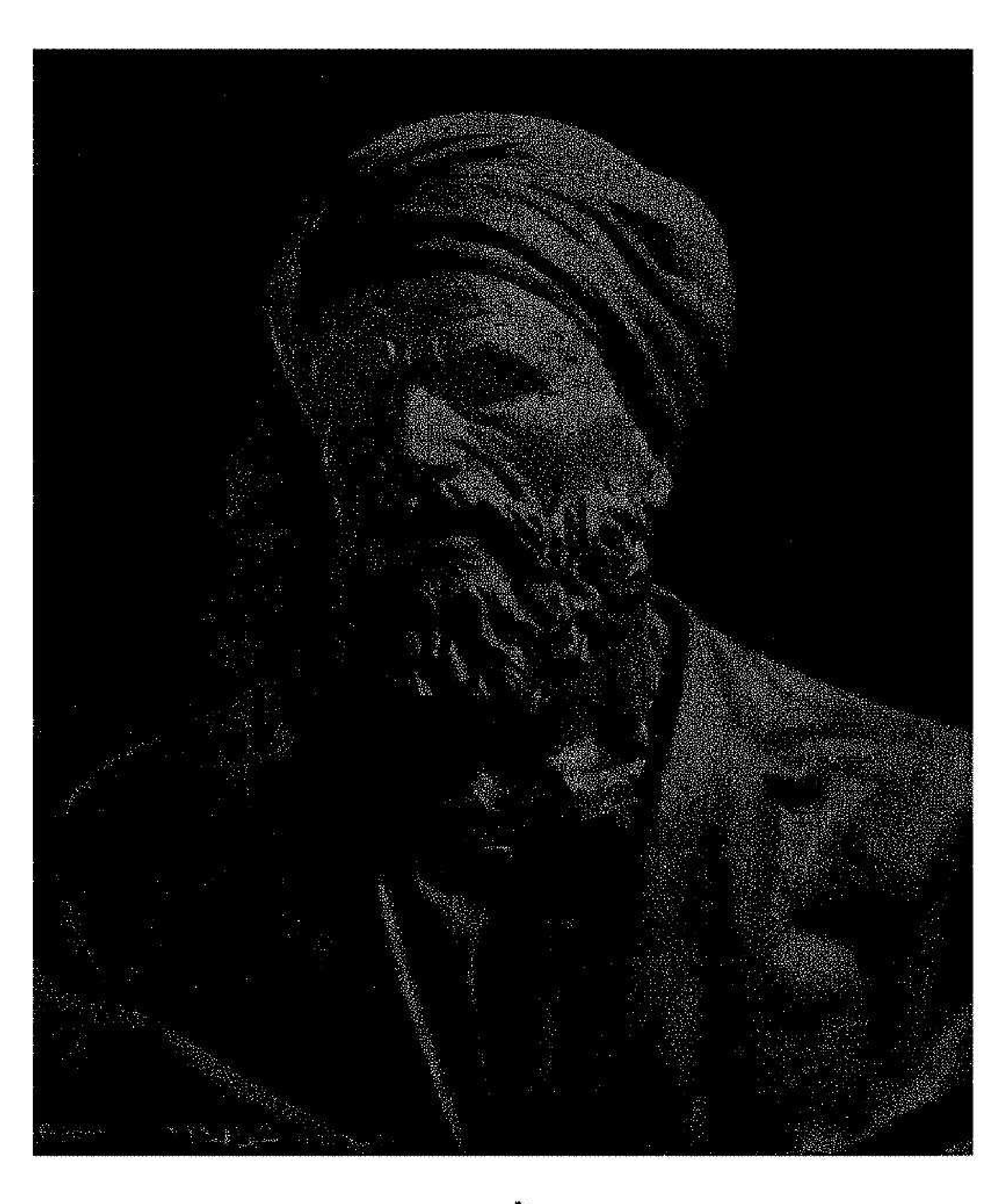
أبو العلاء المعري

دفاع المؤرخ ابن العديم عنه

ملتزمة طبعه ونشره
دار سعد مصر للطباعة والنشر
٧٢ شارع الفجالة — تليفون ٤١٤٥٥
١٩٤٥



رهين المحبسين

الإهداء

إلى زعيم التجديد والمفكر الحر   الدكتور طه حسين بك

اعترافاً بفضله العظيم على الدراسات الأدبية ، وعلى البحوث العلائية بصورة خاصة .

« س »

من نصوص القدماء
في عقيدة أبي العلاء

لحى الله قوماً إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا : كفر ا

المعرى

***

المعرى جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت .

الشيخ كمال الدين الزملكانى

***

دخل على أبى العلاء الوزير المشهور بالمنازى ، فسأله :

ما هذا الذى يرويه الناس عنك ؟

قال : قومٌ حسدونى فكذبوا علىّ .

فأجاب المنازى :

وعلى مَ حسدوكَ ، وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟

قال المنازى :

قال أبو العلاء : والآخرة ؟

ثم أطرق ، ولم يكلمنى حتى قمتُ عنه .

***

أفضلُ مَنْ رأيته مِمَّنْ قرأت عليه : أبو العلاء

أبو زكريا التبريزى اللغوى

لزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلا أن أضطر إلى غير ذلك .

أبو العلاء

***

قال الحافظ السِّلفى :

« ومما يدل على صحة عقيدته ما سمعت من الخطيب حامد بن بختيار النُّميرى بالشمسانية — مدينة بالخابور — قال : سمعت القاضى أبا المهذب عبد المنعم بن أحمد السروجى يقول :

سمعت أخى الفاضل أبا الفتح يقول :

دخلت على أبى العلاء التنوخى بالمعرة ذات يوم ، فى وقت خلوة بغير علم منه ، وكنت أتردد إليه ، وأقرأ عليه ، فسمعته وهو ينشد من قيله (١) :

كم بُودِرت غادةٌ كعابٌ وعُمِّرت أمُّها العجوزُ
أحرزها الوالدانِ خوفاً والقبرُ حرزٌ لها حريزُ
يجوزُ أن تُبطىء المنايا والخلد فى الدهر لا يجوزُ

ثم تأوّه مرّات ، وتلا قوله تعالى :

« إن فى ذلك لآيةً لمن خاف عذاب الآخرة، ذلك يومٌ مجموع

---

(١) هذه الأبيات من شعره فى ملقى السبيل

له الناس ، وذلك يومٌ مشهود ، وما نؤخّره إلا لأجلٍ معدودٍ ، يوم يأتِ لاتكلّم نفسٌ إلاّ بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيد »

ثم صاح وبكى بكاء شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زماناً ، ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال :

سبحان من تكلّم بهذا في القِدَم ! سبحان من هذا كلامُه! فصبرت ساعة ، ثم سلمت عليه ، فردّ وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعة . ثم قلت : أرى ياسيدنا في وجهك أثر غيظ ! فقال : لا يا أباالفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق ، وتلوت شيئاً من كلام الخالق ، فلحقني ما ترى . فتحققت صحة دينه ، وقوة يقينه .

الذهبي

***

« وله مصنفات كثيرة ، أكثرها في الشعر ، وفي بعض أشعاره ما يدلّ على زندقته وانحلاله من الدين ، ومن النّاس مَن يعتذر عنه ويقول : إنه إنما كان يقول ذلك مجوناً ولعباً ، ويقوله بلسانه ما ليس في قلبه ، وقد كان باطنه مسلماً »

البداية والنهاية لابن كثير

***

« .. وصنف بعض الأعلام فى مناقبه كتاباً ، وسماه « دفع المعرّة ، عن شيخ المعرة » ، وفى هذين الكتابين فصول من نوادر ذكائه ، وإجابة دعائه ؛ والاعتذار عن طعن أعدائه .

وأنا كنت أتعصب له ؛ لكونه من المعرة ، ثم وقفت له على كتاب « استغفر واستغفرى » ، فأبغضته ، وازددت عنه نفرة ، ونظرت له فى كتاب « لزوم ما لا يلزم » فرأيت التبرّى منه أحزم فإن هذين الكتابين يدلاّن على أنه كان لما نظمهما هائماً حائراً ومذبذباً نافراً ، يقر فيهما أن الحق قد خفى عليه ، ويودّ لو ظفر باليقين ، فأخذه بكلتا يديه . كما قال فى مرثية أبيه :

طلبتُ يقيناً من جُهينة عنهُم ... ولم تخبرينى ياجُهين سوى الظنّ

فإن تعهدينى لا أزال مسائلا ... فإنىَ لم أعطَ الصحيح فأستغنى

ثم وقفت له على كتاب « ضوء السقط » ، الذى أملاه على الشيخ أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهانى ؛ الذى لازم الشيخ إلى أن مات ، ثم أقام بحلب يروى عنه كتبه . فكان هذا الكتاب عندى مصلحاً لفساده ، موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده ، فأنه كتاب يحكم بصحة إسلامه مؤولا ، ويتلو لمن وقف عليه بعد كتبه المتقدمة « وللآخرةُ خير لك من الأولى » ، فلقد

ضمّن هذا الكتاب ما يثلج الصدر ، ويلذّ السمع ، ويقرّ العين ، ويسرّ القلب ، ويطلق اليد ، ويثبت القدم ، من تعظيم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خير بريته ، والتقرب إلى الله بمدائح الأشراف من ذريته ، وتبجيل الصحابة والرضا عنهم ، والأدب عند ذكر ما يتلقّى منهم ، وإيراد محاسن من التفسير ، والاقرار بالبعث ، والاشفاق من اليوم العسير ، وتضليل من أنكر المعاد ، والترغيب فى أذكار الله والأوراد ، والخضوع للشريعة المحمدية وتعظيمها ، وهو خاتمة كتبه ، والأعمال بخواتيمها .

وقد يُعذر من ذمّه ، واستحل شتمه ؛ فأنه عول على مبادئ أمره ، وأواسط شعره . ويعذَر من أحبه ، وحرّم سبّه ، فأنه اطلع على صلاح سرّه ، وما صار اليه فى آخر عمره : من الانابة التى كان أهلها ، والتوبة التى تجُبّ ما قبلها

وكان يقول — رحمه الله — : أنا شيخ مكذوب عليه .

ابن الوردى

***

قال غرس النّعمة :

وأذكر عند ورود الخبر بموته ، أننا قد تذاكرنا إلحاده ، ومعنا غلامٌ يعرف بأبى غالب بن نبهان ، من أهل الخير والفقه ، فلما كان من الغد حكى لنا قال :

رأيت فى منامى البارحة شيخا ضريراً ، وعلى عاتقه أفعيان متدلّيان الى نخذيه ، وكل منهما يرفع فمه الى وجهه ، فيقطع منه لحماً يزدرده ، وهو يستغيث . فقلت وقد هالنى : منْ هذا ؟

فقيل لى : هذا المعرى الملحد !

الذهبي

***

«وكم من زنديق فى قلبه حقدٌ على الاسلام، خرج فبالغ واجتهد فزخرف دعاوى يلقى بها منْ يصحبه ، وكان غورُ مقصده فى الاعتقاد الانسلال من ربقة الدين ، وفى العمل نيل الملذّات ، واستباحة المحظورات . فمنهم بابك الخرمىّ . . .

ومنهم من لم يبرح على تعثره ، ففاتته الدنيا والآخرة ، مثل ابن الراوندى . . .

وأما أبو العلاء المعرى فأشعاره ظاهرة الالحاد ، وكان يبالغ فى عداوة الأنبياء ، ولم يزل متخبطاً في تعثره ، خائفا من القتل ، إلى أن مات بخسرانه .

***

.. وقد رأيت لأبى العلاء المعرى كتابا سماه « الفصول

والغايات » فى معارضة السور والآيات ، على حروف المعجم في آخر كلماته ، وهو فى غاية الركاكة والبزودة ، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته ! »

ابن الجوزى

***

رفض الدنيا وما سلم ، ورفض غاياتها فعمل بما علم ، وتداوى باليأس من مطامعها ، وداری الناس بترك حظه لهم ، ومع هذا ظُلم .

ابن فضل الله العمرى

***

قال ابن الجوزى :

قال لى المعرى :

وحدثت عن أبى زكرياء أنه قال :

ما الذى تعتقد ؟

فقلت فى نفسى : اليوم يتبين لى اعتقاده !

فقلت له : ما أنا إلا شاكّ !

فقال : وهكذا شيخك . . .

أبو العلاء المفكر

أبو العلاء في مرآة معاصريه

حين أطلق فيلسوف المعرة لفكره العنان في الكشف عن خصائص الطبع البشرى ، وتمزيق الغشاء الذى يحجب حقائق المعتقدات ؛ قامت عليه دنيا العقول المتحجرة ، وأخذت الأفهام البليدة ترميه بالزندقة وتسلقه بألسنة حداد ، ولم يتورع خصومه أن يلصقوا به التهم جزافا وينعتوه بأبشع النعوت .

قال بعضهم : مَن هذا الأعمى الذى يتجرأ على قدسية المعتقدات ؟ وقال آخرون : من هذا الملحد الضال الذى حرّم أكل اللحوم وذبح الحيوانات ؟ أيكون أرقّ عاطفة وأدق فهماً من الرسل والأنبياء ؟ ... وانهالوا عليه سبًّا وكيدا ، ولم يتورع صاحب « فلك المعانى » أن ينعته بالعته والجنون [1] كما نعته القاضى أبو جعفر بما هو أبشع من العته والجنون [2] .. فمن قصص

---

١ ـ معجم الادباء ج ١ ص ١٩٤ طبعة مرغليوث ، وفى عصرنا هذا نعت زكى مبارك أستاذه الدكتور طه حسين بالجهل كما نعت الاستاذ أحمد أمين مؤلف فجر الاسلام بجنايته على الادب ، وقه فى خلقه شؤون !

٢ ـ الباخرزى فى دمية القصر ، وقد نقل هذا النص المرحوم أحمد تيمور باشا فى كتابه « أبو العلاء » ص ١٢٦ .

مزرية تصوره في طليعة المعطّلة ، الى أحاديث مختلفة تصوره فى عين الدهماء آلة تهدم أسس الدين ، إلى غير ذلك مما يضعه في زمرة الكفرة المتهمين !

ولم يعبأ شاعرنا بقالة خصومه ، وهو الذى خبر الناس وعرف طوايا البشر ؛ كان لا يسأل عن هذا ولا ذاك ، لقد لزم بيته بعد أن طوّف في مختلف البلدان و بلغ القمة من المجد العلمى و الأدبى . نعم ، لزم بيته ، أو قل لزم سجنه الضيق يملى فى الأدب و الحكمة و الفلسفة . وكأنه كان يقول : ما شأنه و الجدل ؟ إن غيره من كبار المفكرين و الهداة المصلحين قد مرّوا بهذه الطرق الشائكة . و المفكر الحر من لا يعطى للجهال و مَن هم فى طبقتهم أية قيمة ، ومن لا يصغى الى نقيقهم ، ومن لا ترتعد فرائصه أمام صيحاتهم ، بل عليه أن يسير فى النهج السوىّ يكتب ليقوّم الطبع البشرى وليسمو به فى طريق الكمال .

وقد أملى المعرى فى ذلك آيات صادقة ، أملى اللزوميات وأملى الفصول والغايات ، وأملى ملقى السبيل ، بل أملى عشرات الرسائل ومئاتها ، وكلها تصوير دقيق لطباع البشر وأهوائهم — هذه الطباع التى استعصى إصلاحها على الحكماء ، وعجز الفلاسفة

وحتى الأنبياء عن تقويم عوجها . أترى يظل الطبع البشرى فى انحرافه واعوجاجه ؟ أم ماذا ؟ لا أعلم . . فمن عهد الأغارقة ، ومن قبل الأغارقة بمئات الأحقاب إلى يومنا هذا ، كتب آلاف المفكرين فى ختل البشر وخساسة طبعه وفيما يؤدى إلى تقويم هذا الطبع ، ولكن الانسان ظل كما هو ، ظل فى عنجهيته الأولى . والذى أعتقده أنه سيظل على انحرافه اليوم وغدا وإلى أن تطوى البشرية ويلفها العدم فى طياته الجون . وإن صيحات الفلاسفة والمفكرين ، ومحاولات الساسة والمصلحين ، ماهى إلا نزوات ألم أحيانا وبوارق أمل أحيانا أخرى — ألم مما تعانيه البشرية من انحدار ، وأمل فى الاصلاح والتسامى بالانسان إلى مثل عليا .

هذه الآلام التى جاشت فى صدر المعرى فأملاها وذهبت آية فى الإبداع والخلود ، هى التى ألّبت عليه خصومه فأوغلوا فى سبه والتهجم عليه ، وعدّوه فى زمرة الضالين المعطلين ، وهى التى وضعته أيضا فى مصاف العباقرة فزاد محبوه وتلامذته ورفعوه إلى مرتبة الهداة المصلحين . نعم ، كان المنصفون يتلون ما أملاه بفهم ووعى ، وكان الجاحدون يفسرون أقواله تفسيراً ضيقاً يتلاءم وخبلهم . وهذا الذى جمله يخاطبهم بقوله :

لحى الله قوما إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا : كفر

وتشتد ثورته فيصرخ :

أما فى الأرض من رجل لبيب فيفرق بين إيمان وكفر

أما فى الأرض من رجل لبيب ؟

***

مهلا شيخنا الحكيم ، وخفف قليلا من تشاؤمك ، فلم تخل الأرض فى يوم ما من رجل لبيب منصف يفرق بين الايمان والكفر . وها هوذا نصيركم ، ابن العديم ، المؤرخ الحلبي ينبرى للدفاع عنكم بعد قرنين من وفاتكم ، يكتب سيرتكم ويردّ على خصومكم ؛ فنجد هذا اللبيب المنصف الذى يفرق بين الايمان والكفر .

لقد كتب ابن العديم رسالته الطريفة « الانصاف والتحرّى فى دفع الظلم والتجرّى ، عن أبى العلاء المعرى » فكانت من أبلغ ما كتب عن فيلسوف المعرة فى القرن السادس للهجرة

ولدفاع ابن العديم قيمته : فهو قريب العهد بالمعرى ، وهو حلبي ، وهو أديب واسع الاطلاع ، وفقيه مجتهد ، وعالم متزن الفكر ، وشاعر يتذوق الأدب ، ويملك ناصية الصنعة ، ومؤلف كتب فى شؤون الفكر ، كتب فى التاريخ فأبدع ؛ وكتب فى غير التاريخ

فأطرب ، وقد قرأ جميع كتب المعرى أو أكثرها قراءة فهم ووعى ، فآلمه أن يصبح هذا الفيلسوف الحكيم مضغة فى أفواه الجهلاء ، وأن تفسر آراؤه على غير مقصدها ، فما هى وجهـــة دفاع هذا المؤرخ الأديب عن شاعرنا الفيلسوف الحكيم ؟

***

قبـل الالماع إلى ذلك نريد أن نقول كلمة فى ابن العديم ، فى نشأته ، فى مكانة بيته ، فى مؤلفاته وفى عصره ، فيما رافق هذا العصر من أحداث سياسية ، فان الحديث فى ذلك لا يقل طلاوة عن الحديث عن أبى العلاء .

كمال الدين الطفل

ولد كمال الدين بن العديم فى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٨٨هـ فى مدينة حلب ، ولولادته ، أو لطفولته ، قصة نرجئ الحديث عنها بعد أن نلمع إلماعا سريعاً إلى مكانة عائلته ، هذه العائلة التى اشتهرت بالعلم والفضل ، وكان منها الشاعر والأديب والقاضى . وكما اشتهرت عائلة أبى العلاء بهذه الخصائص الفاضلة ، اشتهرت عائلة ابن العديم بهذه الخصائص أيضاً . وقد نذكر عشرات من آل العديم وآل المعرى وكلهم أديب ، شاعر ، فاضل . وهذه ميزة تختص بها بعض العائلات فتتوارث العلم كابراً عن كابر ، ولكل واحد نهجه وطريقته : هذا شاعر ، وذاك فقيه ، وغيره متصوف ، وسواه محدث ، وكلهم فروع زاكية وأغصان باسقة من شجرة كريمة الأصل والنجار .

وفى تاريخ الآداب العالمية أسر تتوارث أفرادها العلم والأدب جيلا بعد جيل ، فآل مديشى فى فلورانس وآل كوبريلى زاده فى استنبول وغيرهم وغيرهم كثيرون .

***

نشأ كمال الدين بن العديم فى بيت علم وفضل ، وظل هذا

البيت يتوارث أفراده العلم أربعة قرون كاملة . كان جده الأكبر من سكان البصرة ، نزح عنها بعد المائتين للهجرة فى تجارة إلى الشام ، وفى رواية أن طاعوناً نزل بالبصرة ، فخرج منها جماعة من بنى عقيل وقدموا إلى الشام فاستوطن جدهم الأكبر حلب ، ومنذ ذلك العهد حتى القرن السادس والسابع وآل العديم فى حلب والبلاد العربية تتحدث عن مزايا هذه العائلة . نعم ، منذ ذلك العهد وفروع هذه الشجرة تورق وتؤتى أطيب الثمار ، فأبو المجد ، وأبو الحسن ، وأبو على ، وأبو البركات وكثيرون من أعمامه وأجداده — كلهم شاعر ، فقيه ، أديب ، له فى الحياة العقلية أثر مسطور ؛ ولسنا هنا فى مجال الحديث عن تاريخ كل فرد من أفراد هذه العائلة — ولكل واحد سيرة تعبق بالأدب — بل يتناول حديثنا مؤرخ حلب الذى كتب أبلغ دفاع عن شاعر المعرة وفيلسوفها الحكيم .

وإذا كنا أهملنا الكلام عن أفراد عائلته فرداً فرداً فسياق سيرة يقتضينا أن نتحدث عن أبيه القاضى أبى الحسن بن أبى جرادة لما في الحديث عنه من ارتباط بسيرة مؤرخنا كمال الدين . لقد كان القاضى أبو الحسن خطيب قلعة حلب فى عهد نور الدين محمود بن زنكى ، ثم خازن المملكة على أيام ولده الملك الصالح إسماعيل ، ثم قاضيها

فى أيام الملك الصالح ، وظل قاضياً فى جميع العهود التى تصرمت من من عهد دولة عز الدين إلى عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، أى كانت تزول دولات الملوك ودولة أبى الحسن فى القضاء وطيدة الأركان .

وقد يهم القارىء أن يعلم أن والد كمال الدين قد تولى هذه المناصب الخطيرة : خطيب القلعة وخازن الدولة وقاضى قضاة المملكة وهو فى العقد الثالث من عمره ، ولكن التقاليد « المذهبية » — إن صح هذا التعبير — قد ذر قرنها فى تلك الأيام ، فقد كان قاضى حلب « حنفى المذهب » وكانت الدولة « شافعية » فهل يشفع له علمه ومكانة عائلته فى المحافظة على مركزه فى الدولة ؟ يظهر أن كل ذلك لم يشفع له ؛ وعُزل عن منصبه ، لا لشىء إلا لأنه « حنفى المذهب » !... وما كان ذلك ليؤثر فيه ، لأن له من ثروته وجاهه وعلمه ومركزه مايغنيه عن التكسب من مال الدولة أو تحمل أعبائها ، وقبع فى بيته يقطع الوقت بالمطالعة والدرس والإشراف على أملاكه وزراعته والإذعان لأحكام القدر

وبينا هو فى هذه الحياة الحرة الطلقة من كل قيد ، إذ بنبأ سار ترقص له القلوب . فقد انبثق فجر اليوم العاشر من شهر ذى الحجة

سنة ٥٨٨ ﻫ عن مولود أشاع البشر فى بيت آل العديم .

تقبّل القاضى أبو الحسن هـذه البشرى برعشـة المضطرب غير المطمئن ، بكى فرحا حين بُشر بمقـــدم كمال الدين ، وتساءل همساً بينه وبين نفسه :

أى سعادة تنتظر هذا الوليد ؟ أتُكتب له الحياة أم يلفه العدم قبل أن تـكتحل عيناه بمباهج الوجود ؟

ولهذه الوساوس قصة سيأتى حديثها بعد قليل .

مأساة عائلية

نعم ، ساورت الأب هذه الوساوس حين بشر بمولد كمال الدين ، وفى غمرةٍ من القلق الحزين انفجرت أساريره عن ابتسامة يردّد فيها على مهنئيه . لقد أنعم الله عليه بعدة بنات من أجمل ما خلق الله ، وكان برغم حبه لبناته ، فى حسرةٍ على وليد يرث هذا المجد العالى الذى كان ينتقل من الآباء إلى الأبناء ، وكلما تقدمت به السن كان يشعر أن القدر لن يهبه مولوداً ذكرا ... ولكن الأمل كثيراً ماينبثق من السجف السّود . . ومَنَّ الله على الشيخ بوليد ذكر . . ليس هذا الوليد مؤرخنا كمال الدين .. لا .. بل الحديث هنا عن أخيه .. وهو أول مواليده الذكور ، كان غاية فى الحسن والجمال والفطنة والذكاء . وبدهىّ أن تقوم الدنيا وتقعد ـ دنيا عائلة بيت العديم ـ لمقدم هذا الوليد بعد أن استقبلت أكثر من بنت واحدة .

وهذا شعور طبيعى ، عند أية أسرة من الأُسر ، وطبيعى أن يكون هذا الشعور أقوى عند أسرة ميّزها الله بالمجد والفضل والثروة والجاه . وهكذا : فقد كثر المهنئون ، وانهالت الهدايا ، واستقبل الشيخ هذه النعمة بكثير من الحمد للهِ تعالى على أن وصل حبل العلم والجاه

بهذا البيت ، وما هذا الحبل الممدود إلا هـذا الولد السعيد . . .

ومرّت أيام ، وكأن المولى أراد أن يمتحن هذا الرجل ، أن يمتحن صبره وجلده على ملاقاة الكوارث والأحداث ، ولأمرٍ لا يعلمه إلا الله — جلت قدرته — استلّ القدر هذا المولود من بين أحضان أمه ولما يشبّ عن الطوق . وتصور ، أيهـا القارئ ، أى حزن دهم الأب وأية فاجعة نزلت بالأم ؟ وماحالة هذه الأسرة التى انقلب فرحها حزناً ، وسعادتها شقاءً ، وأملها يأساً ، ونهارها ليلا مظلماً . لقد اسودّت الدنيا فى عين هذا الشيخ الكبير ولم يعد يهتم لشىء من زخارف الدنيا ، فلا المال ، ولا الجاه ، ولا القضاء ، ولا المجد ، ولا شىء كان يسليه عن فلذة كبده ، وقد حزن حزناً عميقاً هدّ قواه وأصابه مالم يصب والداً على فقد ولده ، فامتنع عن الطعام والشراب إلا مايقيم هذا الجسم الضاوى ، وجلس في بيت مظلم لا يستقبل أحداً ، ولا يفكر فى أحد إلا فى هذا المصاب الجلل ، وكان لا يسمع منه غير الأنين والبكاء .. وأى بكاء ؟ .

كانت أيامه تمر بين ترتيل كلام الله العزيز ، والصلاة بخشوع ، وزيارة المقبرة . وهمّ فى يوم ما ، وهو فى المقبرة ، وقد غلبه الحنين ، ولجّ به الشوق ، وعصاه الصبر — همّ أن يخرج فلذة كبده من القبر ليروى غليل شوقه وينعم برؤيته .

وبالرغم مما كان عليه الشيخ ، من قوة وجبروت ، امتنع عليه الحجر ، ولم يستطع أن يكشف القبر ، وأدرك بإيمان عميق — وهو من صفوة العلماء — أن الله جلت قدرته أراد ذلك شفقة منه على الطفل وعليه ، فزجر نفسه . وعاد متعبا مكدوداً ، عاد إلى البيت يبكي همساً ويصلي ، ومازال حتى ارتمى على فراشه وهو فى غاية الإعياء . .

وبديهى وهو فى هذه الحالة ، أن يستيقظ عقله الباطن على الرؤى والهواجس ، وطبيعى أن تتراءى له الأحلام وهو فى غفوته اليقظة ، ورأى في تلك الليلة رؤيا أرعبته أولا ، ولكن مالبثت أن شفته من مرضه . .

ماذا رأى ؟

ماذا سمع ؟

رأى ولده . . رأى فلذة كبده ، وسمع صوته .

نعم خيل اليه أنه يخاطبه بقوله :

يا أبى . . عرّف والدتى أنى أريد أن أجيء اليكم ! . .

واستيقظ أبو الحسن مذعوراً ، وركض إلى زوجه يريد إيقاظها ، ولم تكن الأم المفجوعة نائمة ، فهى أشد لوعة على ولدها من أبيه ؛

وما كاد يقصّ عليها نبأ الرؤيا حتى بكيا بكاء شديدا (١)

أكانت هذه الرؤيا إيذاناً بانتهاء المصيبة ؟

ألم يكف هذين الأبوين تذراف الدموع ؟

لقد ذاقا حلاوة الحياة ومرارتها فأيقنا أن كل مجد فى هذه الدنيا زائل ما خلا وجه الخالق الكريم ، وأن الحياة مزاج من الخير والشر ، وأنه لا توجد سعادة كاملة ولا شقاء كامل ، وأن على المرء أن يدرب نفسه على هذه الأحداث ، أحداث الحياة التى لا ترحم والتى لا تسير على وتيرة واحدة . وكأنه كان يردد قول أبى العتاهية :

اصبر لدهر نال منك　　فهكذا مضت الدهور

فرح وحزن مرة　　لا الحزن دام ولا السرور

وتشاء إرادة المولى — والشيخ على هذه الحالة من صوفيته المتجردة — تشاء الإرادة الأزلية أن ترأف بهذين القلبين الكسيرين فتمنّ عليهما بولد نحيف ، ضعيف البنيـة ، تكاد تحسبه شبحاً من الأشـباح .

ولعل القارىء أدرك أن هذا المولود هو كمال الدين بن العديم مؤرخ حلب الذى استفاضت شهرته فى الآفاق وكان من أمره ما كان .

---

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٣٦ طبعة مرغليوث

قال والده :

«عندما ولد كمال الدين لم يكن بقلبي بحلاوة ذلك الأول ؛ لأنه كان نحيفاً »

وكأن الأب ، وقد مرّت به تلك المصيبة قدّر أن هذا الولد لن يسلم له ولن تقرّ به عينه ، ومع ذلك شكر الله على نعمته وفضله ، وبدأ الطفل يحبو ويكبر ؛ « وكلما كبر ؛ نبل جسما وقدراً ، ودعا له عدة دعوات ، وسأل المولى له عدة سؤالات ؛ ورأى فيه ، والحمد لله ، أكثرها» ... نعم ، كلما نما الطفل وترعرع تضاءلت أحزان الأب.

وفي يوم ما زاره أحد أصدقائه المقربين ، وكأن الطفل يلاعب باه ؛ فما كان منه إلا أن تمنى له أن يراه قاضياً كما كان عليه آباؤه ..

ولم تنزل أمنية الصديق من نفس الأب منزل الرضا ، فما كان منه إلا أن أجاب صديقه على البداهة بقوله :

« ما أريد له ذلك ؛ ولكني أشتهيه أن يكون مدرّساً »

وكان الأب ، وقد ثارت في نفسه تلك النزوة القديمة ــ نزوة تنحيته عن منصب القضاء لمذهبيته ــ لم يشأ لابنه أن يصبح قاضياً ؛ ولكن الأقدار خيّبت مشيئة الأب وحققت أمنية الصديق الذى تمنى أن يرى ابن صديقه قاضيا ، كما كان آباؤه . ووصل كمال الدين ،

بعد موت أبيه ، الى مالم يكن يحلم به أحد ، فقد تخطى بمجده كل أمجاد أسرته ، وبنى مجداً سما به الى الآفاق وخلداسم آل العديم على العصور .

***

يصف ياقوت كمال الدين بقوله :

« إن الله عزّ وجل عنى بخلقته فأحسن خَلقه وخُلقه ، وعقله وذهنه وذكاءه ، وجعل همته فى العلوم ومعالى الأمور ، فقرأ الأدب وأتقنه ، ثم درس الفقه فأحسنه ، ونظم القريض فجوده ، وأنشأ النثر فزيّنه ، وقرأ حديث الرسول وعرف علله ورجاله وتأويله وفروعه وأصوله . وهو مع ذلك قلق البنان ، جواد بما تحوى اليدان ، وهو كاسمه كمال فى كل فضيلة ، لم يعتن بشىء إلا وكان فيه بارزاً ، ولا تعاطى أمراً إلا وجاء فيه مبرزاً ، مشهور ذلك عنه لا يخالف فيه صديق ، ولا يستطيع دفاعه عدو . وأما قراءته للحديث فى سرعته وصحة إيراده وطيب صوته وفصاحته فهو الغاية التى أقر له بها كل من سمعها ، فانه يقرأ الخط العقد كأنه يقرأ من حفظه . وأما خطّه فى التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقلة لأبى عبد الله بن مقلة ، وبدر ذو كمال عند على بن هلال .

خلال الفضل فى الأمجاد فوضى ولكن الكمال لها كمال . . .

وإذا كان التمام من خصائص عالم الغيب ، وكان الانسان لابد له من عيب ، فعيبه لطالب العنت والشين ، أنه يخاف عليه من إصابته العين . هذا مع العفاف والزمت ، والوقار وحسن السمت ، والجلال المشهور عند الخاص والجمهور .

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة   ولداته عن ذاك فى أشغال (١)

***

. . . فى هذه الخطوط السريعة التى رسمها ياقوت صاحب « معجم الأدباء » صور جلية عن عبقرية هذا الشاب الفذ الذى لم يكد يبلغ العقد الثانى من عمره حتى وصل إلى القمة ، وفى تاريخ حياته نقرأ صفحات قوية من تاريخ حلب فى العصر السادس — تاريخها السياسى ، وتاريخها الأدبى معا .

---

(١) معجم الادباء ج ٦ ص ٣٥ — ٣٦ طبعة مرغليوث

أسفار ابن العديم. نشأته العلمية
مؤلفاته

هذا الشاب الذى نشأ فى بيت علم وفضل ، قد أولع منذ صغره بالأسفار ، وما كان والده ليحول دون تحقيق رغباته على ما فى السفر ، فى تلك العصور ، من مشاق ومتاعب ، فلم يكد يتجاوز الخامسة عشرة من عمره الغض حتى قام برحلة إلى بيت المقدس ، سافر إليها سنة ٦٠٣ هـ ثم عاد فسافر مرة ثانية بعد خمس سنوات ، وكأن بغيته من السفر ليست التجوال والتفرج فى البلدان فقط ، بل طلب العلم من الأئمة العظام ، مع درس الحالة السياسية ، والحالة الفكرية فى دمشق والقدس ومعرفة ما كانتا عليه من الاضطراب والغليان .. وقد اتصل بطائفة من علماء دمشق والقدس وأخذ عنهم ماوعت صدورهم من كنوز العلم ، وربما طلب إليهم أن يجيزوه فى بعض العلوم فلم يبخلوا عليه لما رأوا فيه من ذكاء وألمعية .

وعُنى والده بتربيته ، منذ صغره ، تربية علمية ، وتنشئته على غرار آبائه وأجداده ، وكان يفرض عليه حفظ طائفة من الكتب فحفظ « اللمع » وحفظ « القدورى » وهما كتابان فى الفقه — حفظهما فى

مدد قصيرة ، وحفظ غيرها ، كما حفظ القرآن ، وحفظُ كتاب الله ميزة فى آل العديم ، فما منهم واحد إلا انطوى صدره على آياته المحكمة(١) .

وعرف كمال الدين بين أترابه بالسبق ، وكان شديد الاتصال بعلماء عصره ، سمع الحديث عن أبيه وعمه أبى غانم وابن طبرزد والافتخار والكندى والخرستانى ، وسمع جماعة كثيرة بدمشق وحلب والقدس .

وأصبح مرموق القــدر بين العلماء ، ونيط به التدريس فى أعظم مدارس حلب ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره (وحلب أعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ والفضلاء الرواسخ ، فألقى الدروس بجنان قوى ، ولسان لوذعى . فأبهر العالم وأعجب الناس)(٢) .

وأخذ كمال الدين يؤلف فى هذه السن المبكرة ، فكتب للملك الظاهر كتاب « الدرارى فى ذكر الذرارى » وقدمه اليه هدية يوم ولد ولده الملك العزيز الذى وسدت إليه سلطنة حلب بعد أبيه ، كما

(١) فى معجم الأدباء ج ٦ ص١٩ : حدثنى كمال الدين أبو القاسم ، قال حدثنى جمال الدين أبو غانم محمد بن هبة الله بن محمد أبى جرادة عمى قال : لما ختمت القرآن قبلنى والدى بين عينى و بكى وقال : الحمد لله ياولدى ، هذا الذى كنت أرجوه فيك ؛ حدثنى جدك عن أبيه عن سلفه : انه ما منا أحد الى زمن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من ختم القرآن .

(٢) معجم الادباء ج ٦ ص ٤٠ طبعة مصر

كتب كتاب « ضوء الصباح فى الحث على السماح » صنفه للملك الأشرف ، وحين أنعم النظر فى جمال خطه رغب فى رؤيته ، ولما مثل بين يديه أحسن اليه وأكرمه ، وخلع عليه وشرفه .

وهكذا ، بدأ نجم ابن العديم يلمع ، وأخذ صيته يدوى ، وأحبه العلماء والملوك . وكأنما كان التأليف نزعة من نزعات هذا الشاب النبيغ ، فلا يكاد ينتهى من وضع كتاب حتى يبدأ بوضع كتاب آخر .

وقد طلب اليه ياقوت الرومى أن يؤرخ آل العديم الذين يتصل نسبهم ببنى جرادة ، فكتب فى أسبوع واحد كتاب « الأخبار المستفادة فى ذكر بنى جرادة » وهو الكتاب الذى اعتمد عليه فى تدوين أخبار بنى العديم ، وإذ عرف بجودة الخط ، وكان للخط الجميل أثره ، وضع كتاباً فى الخط وعلومه ، ووصف آدابه وأقلامه وطروسه ، وما جاء فيه من الحديث والحكم . كما كتب تاريخ حلب ، ضمنه أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ، ومن كان بها من العلماء ، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب ، كما كتب كتاب « تدبير حرارة الأكباد ، فى الصبر على فقد الأولاد » ولا شك أنه صوّر فيه لواعج الحزن فى صدر أبيه ، ودموعه الحرى على فقد أخيه .

وقد ألف ابن العديم فى شتى صنوف العلم ، وكانت نزعته إلى التاريخ أغلب ؛ ولعل أعظم كتبه وأوفاها كتابه عن تاريخ حلب ، لقد كان هذا الكتاب آخر ماألفه هذا العالم المؤرخ الأديب ، ولم تكن السياسة وأعمال القضاء لتشغلاه عن التأليف ، والتأليف ظاهرة غريبة يمتاز بها بعض العباقرة ، فلا تمر الفكرة فى خاطرهم حتى تتسع وتتجسد وتستحيل كتاباً له أثره ، وله قيمته ، وقد يخلد مع الأيام .

وابن العديم كان من هذا النفر ، فقد وهبه الله الذكاء والدراية وعاش فى بيئة علمية مكنته أن ينهج نهج آبائه وينسج على طرازهم ، وشاءت الأقدار أن تتحقق أحلام أبيه فيرى ولده فى منصب رفيع يحسده عليه الكثيرون ، ولا شىء يقر عين الأب ويجعله فى فيض من السعادة أجمل من أن يرى نجم ولده آخذاً فى الالتماع وهو فى قيد الحياة . وهكذا كان . ويظهر أن المهام الرسمية لم تشغل ابن العديم عن التدوين والتأليف . نعم ، لم يشغله منصب قاضى القضاة ، ومنصب الوزارة حيناً ، والسفارة حيناً آخر ، عن التدوين ، بل كان ذلك مما زاد فى نشاطه .

يقول العلامة محمد كرد على : « وكان جميع أهل هذا البيت ـ بيت ابن العديم ـ منذ كان الإسلام يحفظون الكتاب العزيز ، وقد

تولى خمسة منهم على التوالى منصب قاضى القضاة بحلب ، وكان كمال الدين واسطة عقدهم ؛ واشتغل بالسياسة والعلم فتولى الوزارة مرتين الأولى للملك العزيز ، والثانيـة للناصر آخر بنى أيوب ؛ وذهب بالسفارة عنهما إلى بغداد والقاهرة . ولا يتولى الوزارات فى الغالب إلا الأكفياء ؛ ولا ينوب عن صاحبه إلا أرباب الكفايات المعترف بها

وقد ألف كمال الدين وصنف وكتب بخطه الجيد ألوفا من الصفحات ؛ ومن جملة ما كتب بخطه البديع ثلاث خزائن من الكتب واحدة لنفسه ، وخزانتان لابنيه ؛ لكل منهما خزانة ، فاذا افترضنا — الافتراض لكرد على — أن كل خزانة تضم مئة مجلد ، وهو أقل تعديل ، فيكون مجموع ما كتب ثلثمائة مجلد ، عدا تآليفه الممتعة التى تمت على تحقيقه وبحثه ، ولم نعرف منها سوى ثلاثة :

١ — الأول من كتبه : دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى

٢ — تذكرة ابن العديم : وهى مفقودة وجد منها مجلد فى بضعة أجزاء أولها : الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر ، وفيها فوائد أدبية وتاريخية كثيرة ، وهى جديرة بالطبع .

٣ — أمّا الكتاب الثالث الباقى من تآليف مؤرخنا فتاريخ « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » وهو من أحسن كتبه ، ولم يبيضه ،

وفيه كلام عن جغرافية بلاد حلب وبحيراتها وجبالها وتربتها وهوائها ومائها وخراجها وعادياتها، وذكر فيه مدنا تعد اليوم من كايكيا والجزيرة مع أنها من أعمال حلب: مثل أذنة والكنيسة السوداء وطرسوس وسيس والحدث الحمراء وملاطية وسميساط ورعبان ودلوك إلى غير ذلك من الحصون والبلاد. وتكلم على جيحان نهر المصيصة وسيحان نهر أذنه والعاصى نهر أنطاكية وحماة والبردان نهر طرسوس، وبذلك عرفنا أن عمل حلب فى عهده كان واسعاً جدا أكبر من مملكة من الممالك الصغرى لعهدنا، وفيه فصل من أجمل فصول الكتاب فيمن نزل من قبائل العرب بأعمال حلب ومن كان قبلهم »(١)

يقول ابن الشحنة فى تأليف ابن العديم فى تاريخ حلب:

« إن كمال الدين بن العديم أتقن فى تاريخه وأجاد وأطال ولم يبيض منه إلا اليسير. وأطال فيه من ذكر الروايات والطرف، فجاء بمعنى قليل فى لفظ كثير، ولم يسبقه أحد بتاريخ لها على الخصوص، وسماه « بغية الطلب فى تاريخ حلب » رتبه على حروف المعجم »

ويقول: « إن مسودته كانت تبلغ نحو أربعين جزءاً كباراً

«١» مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ١٦ ج ٤ ص ١٤٦

والمبيضة تجيء كذلك ، لكن اخترمته المنية قبل إكمال الأمنية ؛ وتفرقت أجزاؤه قبل الفتنة التيمورية » .

***

ويقول صاحب كشف الظنون[1] فى إلماعه إلى من كتب في تاريخ حلب :

« إن أول من صنف فيه على مافى « الدر الحبب » كمال الدين أبو حفص عمر بن أبي جرادة عبد العزيز المعروف بابن العديم الحلبي المتوفى سنة ستين وستمائة ، جمع فيه أعيانها على ترتيب الأسماء »

قال اليونيني في الذيل : يكون بياضه في أربعين مجلداً ، ومات وبعضه مسودة . وسماه « بغية الطلب » ، ثم انتزع منه كتابا سماه « زبدة الحلب » ثم ذيله القاضي علاء الدين أبو الحسن على بن سعد الجبريني الشهير بابن خطيب الناصرية المتوفى سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة ، وسماه « الدر المنتخب » وهو أيضاً على الحروف .

ويمضى الحاجى خليفة الشهير بكاتب چلبي صاحب كشف الظنون فى ذكر جميع المؤرخين الذين كتبوا عن حلب ، فيبين أنهم اعتمدوا جميعهم ما كتبه ابن العديم ، فيقول :

---

(١) ج ١ ص ٢٩١ طبعة استانبول

« ولما طالعه — أى كتاب ابن العديم — الحافظ أبو الفضل أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى حين قدم حلب سنة ست وثلاثين وثمانمائة ألحق فيه أشياء كثيرة ، كما ذكره فى ديباجة « أنباء الغمر » وأثنى على صاحبه ، ثم ذيله موفق الدين أبو ذر أحمد بن إبرهيم الشهير بسبط بن العجمى الحلبي المتوفى سنة أربع وثمانين وثمانمائة ، وسماه « كنوز الذهب » وهو ذيل « الدر المنتخب » ضمنه ذكر الأعيان والحوادث ، والذيل على « كنوز الذهب المسمى بالدر الحبب » للمحقق رضى الدين محمد بن إبرهيم المعروف بابن الحنبلى الحلبي المتوفى سنة إحدى وسبعين تسعمائة ، وهو أيضاً على الحروف . وله تاريخ آخر انتزعه من تاريخ ابن العديم وزاد عليه وسماه « الزبد والضرب ، فى تاريخ حلب » ألفه سنة إحدى وخمسين وتسعمائة وللشيخ طاهر بن الحسن المعروف بابن حبيب الحلبي المتوفي سنة ثمان وثمانمائة تاريخ منتزع منه أيضا سماه « حضرة النديم من تاريخ ابن العديم » .

هكذا وجدته ، ثم رأيت فى « درة الأسلاك » لوالده حسن ابن حبيب أنه يقول فى ترجمة الكمال بن العديم : جمعت من تاريخه ومن خطه كتاباً لطيفاً سميته « حضرة النديم » « اهـ »

ومن هذا العرض نعلم قيمة هذا الكتاب الذى كان مرجعاً لجميع المؤرخين الذين كتبوا عن حلب ، منذ العصر السادس إلى العصر العاشر الهجرى ، إلى يومنا هذا . .

ولكن أين هـــذا الكتاب ؟ وهل تحتفظ مدينة حلب بهذا الأثر النفيس من آثار ابن العديم ؟ من المؤسف والحرقة تحزّ نفوسنا أن نقول : لا . والله يعلم أى يد آثمة عبثت بأجزاء هذا الكتاب ؟. وهو اليوم كله أو بعض أجزائه فى مكاتب باريس واستنبول والقاهرة ولندن وحلب .

ومن المؤلم أيضاً أن نقول إنه لم يبق من الاربعين جزءاً التى كتبها ابن العديم بخط يده غير أجزاء مبعثرة ، مع أن كتابه كان مرجعاً لعشرات المؤرخين على تعاقب الأجيال .

آراء المؤرخين في ابن العديم

تلك لمحات سريعة عن ابن العديم المؤلف ، ولنستمع الآن إلى آراء معاصريه ، وأكثرهم من ثقات المؤرخين ، في قيمته العلمية ومركزه الاجتماعى أديباً وعالماً وقاضياً ووزيراً وسفيراً من سفراء المملكة ، وهكذا تنكشف لنا صفحات جديدة من حياة هذا الرجل الموهوب الذى دافع عن كرامة العقل فى شخصية أبى العلاء ، ولعب دوراً خطيراً فى تاريخ حلب الأدبى والسياسى ، وكان من هذا النفر الذى عمل على توثيق الروابط بين مصر والبلاد العربية فى ردّ عدوان الأجنبى .

قال الذهبي صاحب تاريخ الاسلام :

« كان كمال الدين عديم النظير فضلا و نبلا وذكاء ورأيا ودهاء ومنظراً ورواء وجلالة ومهابة ؛ وكان محدثاً حافظاً ومؤرخاً صادقاً . وفقيها مفتياً ومنشئا بليغاً . . »

وقال شهاب الدين محمود :

« كان ابن العديم إماماً عالماً فاضلا متفنناً فى العلوم ، جامعاً لها . أحد الرؤساء المشهورين والعلماء المذكورين . وترسل إلى الخليفة

والملوك مراراً كثيرة . وكانت له الوجاهة العظيمة عند الخلفاء والملوك . وهو مع ذلك كثير التواضع لين الجانب حسن الملتقى والبشر لسائر الناس . مع ماهو مفطور عليه من الديانة الوافرة والتحرى فى أقواله وأفعاله » .

وفي « فوات الوفيات » :

« كان محدثاً فاضلا حافظاً مؤرخاً صادقا فقيهاً مفتياً منشئاً بليغا كاتباً محموداً ، درس وأفتى وصنف وترسل عن الملوك » .

***

ونستطيع أن نورد عشرات النصوص فى الإلماع إلى علمه وفضله ومركزه . وكلها على النسق الذى تقدم . ونكتفى بهذا المقدار لننتقل إلى صفحة جديدة من حياته السياسية .

ونرى قبل الالماع إلى هذه الصفحة أن نجلو العصر السياسى الذى عاش فى أطوائه ابن العديم .

عصر ابن القديم والغزو المغولي

لقد كان العالم الاسلامى فى العصر السادس الهجرى . يعجّ بالقلاقل والاضطرابات . وكانت دنيا العرب بعد أن تصدعت الخلافة الاسلامية تتقاذفها الرياح والأعاصير . بل كانت فى حالة من التصدع تدعو إلى الذعر واليأس . . فما كادت تهدأ نيران الحروب الصليبية ويخمد ضرامها حتى أخذت تواجه خطراً جديداً . كانت حروب المغول لا تقل خطراً عن الحروب الصليبية ، أى أن البلاد العربية فى تلك الفترة . واجهت حربين عنيفتين : حرباً دينية خطيرة وحرباً عنصرية مميتة . نعم لقد واجهت شواطىء البحر المتوسط هذه الموجات الصليبية التى صمد لها صلاح الدين ، فما كادت تردّ ويقضى عليها حتى واجهت خطر جنكيزخان وهولاكو . . وأى خطر ؟ . لقد كان خطر المغول كالطاعون المخيف الذى انتشر وباؤه فى جميع الأقطار الإسلامية .

يصف المستشرق السير توماس أرنولد فى كتابه « الدعاية الإسلامية » هذه الكارثة بقوله :

« لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات

خطباً أشد هولاً من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قنن الجبال واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية ؛ وأتت على ما كانت لها من مدنية وثقافة ، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى صحراوات وأطلال بالية ، وكانت تقوم قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدائق والمروج الغنّاء [١] »

وهكذا ، امّحت معالم المدنية التى زهت عدة عصور فى بلاد ماوراء النهر وخراسان على أيدى هؤلاء المتوحشين ، وانحدرت البلاد إلى دركات الفاقة والجهل ، وتقوضت عظمتها . وأقفرت الطرق من القوافل التى كانت تخترقها لنقل حاصلات الصين والهند إلى غربى آسيا وأوربا ؛ واستحالت الأرض الزراعية المعروفة بخصوبتها إلى بلقع يباب ، واضمحلت الصناعات والفنون التى طبقت شهرتها الآفاق ؛ وغدت المدن والضياع أطلالا دارسة ، وقتل الفلاحون ، وأدخل من بقى منهم قسرا فى الجيش المغولى ؛ وحمل أصحاب المهن إلى أقاصى الشرق ليشتغلوا فى تجميل مسقط رأس الغازى ، وعلى الجملة قضت إغارة المغول قضاء مبرما على الحياة العقلية فى آسيا الوسطى [٢] .

(١) انتشار الاسلام بين المغول والتتار — حسن إبراهيم حسن ص ٢٤

(٢) مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ص ٣٣٩

هولاكو فى بغداد

لقد مهد جنكيزخان لهولاكو، بعد هذه الزحفات المغيرة — مهد له شهوة الفتح فى بلاد الشرق العربى، فبعد أن فتح بلاد ما وراء النهر، بعد خوجاند وبخارى وسمرقند وأوركانج وهراوة والرى ونياور وهمدان، واصل زحفه على بغداد عاصمة الخلافة العباسية فقد دخلها فى عهد المستنصر الذى توفى فى أحرج مواقف الدولة العباسية. نخلفه ابنه المستعصم بالله، وكان ضعيف الرأى، شديد البطش، مغرماً باللهو، وقد عرف عهده بنشوب الفتن والاضطرابات فى الداخل والخارج، حتى تجمعت عليه الإحن والمصائب.

وكان المسيطر على شؤون الملك وزيره ابن العلقمى، وكان رافضيًّا خبيثاً، حريصا على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين، وقد زين للخليفة أن يسرح الجند ويصانع التتار، وكان على صلة بهولاكو وأعوانه، فكاتبهم سرًّا وأطمعهم فى البلاد على أن يكون نائبهم، فوعدوه بذلك، وتمت الكارثة الكبرى. فدخل هولاكو وجنوده قاعدة الملك العباسى بجيوش جرارة لا قبل للعالم الاسلامى بها، وقد حاول جنود الخليفة مقاومة الغزاة

قبل وصولهم إلى بغداد . بيد أن تفرق كلمتهم أدى إلى إحباط جهودهم وإلحاق الهزيمة بهم فى آخر الأمر .

ولما وصل المغول إلى بغداد حاصروهم أربعين يوماً حصاراً لا هوادة فيه ؛ ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون المشرفة عليها ، ثم طفقوا يمطرونها بوابل من الحجارة والغاز المشتعل حتى أحدثوا فى أسوارها فجوة كبيرة وأحرقوا منازلها ، وعندئذ أذعن الخليفة المتردد لطلب الصلح وفتح باب المفاوضات مع هولاكو الذى سرعان ما استدعى كبار ضباط المستعصم وقتلهم هم وخدامهم وأتباعهم ، فساء لذلك موقف الخليفة ؛ وأبدى في الحال استعداده إلى الاذعان بالتسليم على شرط أن يبقى على حياته وحياة سكان المدينة ، كما استأذنه فى الخروج إلى معسكره وبصحبته أخوه وولداه وحاشيته المؤلفة من ثلاثة آلاف جمهم من القضاة والأعيان والأشراف ، ولكن هولاكو مع ذلك لم يسمح لأحد بالمثول بين يديه إلا للخليفة نفسه وأخيه وولديه وثلاثة من رجال البلاط .

وقد استقبلهم ذلك الوحش استقبالا وديًا برغم ما كان يضمر لهم من الخيانة والغدر ، ولما نجح فى تهدئة روع الخليفة وأدخل الطمأنينة إلى قلبه ، أمره أن يوعز إلى الأهالى المسلحين بالقاء

السلاح والوقوف خارج أبواب المدينة بحجة إحصائهم ، وما إن أذعنوا إلى أوامر الخليفة وتدفقوا خارج أسوار المدينة حتى هجم عليهم التتر وفتكوا بهم فتكا ذريعاً .

وفى صباح اليوم التالى أصدر هولاكو أمره المشئوم بنهب المدينة وذبح أهلها. وإننا لنرى — كما يقول المؤرخ الهندى أمير على — أننا نحتاج فى وصف تخريب تلك المدينة إلى بيان كبيان (غيبون) المؤرخ المشهور لكى نستطيع أن نقرب الحقيقة إلى أذهان القراء ، فقد خرج الشيوخ والنساء والأطفال من منازلهم حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون إلى الجنود بلهجة تفتت الأكباد أن يبقوا على حياتهم ، ولكن الغزاة لم يعبأوا باستغاثتهم كما وطئوا أجسادهم بحوافر خيولهم ، وهجموا على نساء الأشراف والنبيلات اللواتى لم يعتدن السير فى ازدحام طوال سنى حياتهن وجروهن إلى الشوارع ، كما أنزلوا بهن أروع ضروب الإهانات وأذلها.

أما تلك الكنوز الأدبية والفنية ومخلفات المدنية الفارسية التى جمعتها أيد حريصة نشيطة بإشراف الخلفاء ، فقد دمرت تدميراً فى خلال بضع ساعات ، وطفقت شوارع المدينة تنساب فيها الدماء طوال ثلاثة أيام ، حتى اصطبغ ماء دجله لعدة أيام بصبغة الدم القانية ،

وظلت ريح التخريب والذبح وانتهاك حرمة الأنسانية تعصف بالمدينة ستة أسابيع كاملة حتى انهارت القصور المنيفة الذرى ، وتقوضت الجوامع المقدسة والضرائح الفخمة إما بالنار وإما بالمعاول من أجل قبابها الذهبية .

وأعملت السيوف في رقاب المرضى فى المستشفيات ، وطلاب العلم والأساتذة فى المدارس والكليات ، ونبشت قبور الأولياء وأضرحة الأئمة الصالحين ، والتهمت النيران نتائج قرائح العلماء والأدباء ، وألقيت الكتب لتلتهمها ألسن النار أو لتبتلعها مياه دجلة ، وهكذا فقدت الانسانية كنوز خمسة قرون ، وفنيت زهرة الأمة فناء تامًّا .

وبعد أن استمرت ريح هذه المذابح الدامية تعصف بالمدينة طوال أربعة أيام ، قبض هولاكو على المستعصم وأمر بضربه هو وأولاده وأفراد أسرته ضرباً مبرحاً حتى فارقوا الحياة[1]. ولم ينج من هذا المصير المحزن سوى عدد ضئيل من أفراد الأسرة الخاملى الذكر .

وهكذا ، أمست بغداد موطن العلم ومثابة العلماء ، وعاصمة

---

(١) فى النجوم الزاهرة : أنه لما تم أمر هولاكو طلب الخليفة وقتله خنقاً ، وقيل غم فى بساط ، وقيل جعله هو وولده فى عدلين وأمر برفسهما حتى ماتا . ج ٧ ص [illegible]

الثقافة الإسلامية ، وحاضرة العالم العربي خراباً يباباً ، بعد أن كان عــدد سكانها قبل هــذه الطامة الــكبرى زهاء مليونين . ويقول ابن خلدون إن ١٫٦٠٠٫٠٠٠ هلــكوا فى تلك المذبحة فى خلال ستة أسابيع . وبتدمير بغداد أرخى الظلام الدامس سدوله على غربى آسيا[1]

كان العالم الأسلامى ، فى العصر السادس ، يعيش فى هذه المحن السود ، ولم تكن عاصمة الخلافة العباســية ـ على ماهى عليه من التفكك والانقسام الداخلى ـ لم تكن تظن أن غارة التتر التى نبتت فى غربى آسيا ستتخطى فارس إلى وادى الرافدين ، وكان سقوط حاضرة الخلافة العباسية ـ وقد سقطت سنة ٦٥٦ هـ ـ إنذاراً خطيرا بنكبات تنتظر بلاد الشــــام . وهكذا كان . فان هولاكو والى زحفه دون توقف .. وماذا بعد بغداد ؟ نعم ماذا بعد فرغانة وبخارى وسمرقند وبلخ ونيسابور وبغداد غير مدينة ابن العديم ؟

لقد كان كمال الدين فى نضارة شيخوخته . وإنه ـ وهو مؤرخ وسياسى ـ يعرف أى مصير محزن يرتقب حلب .. لقد أبكته كارثة بغداد ، هذه الحاضرة التى قامت على ضفافها حضارة العالم الإسلامى أجمع ..

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ص ٣٤١ — ٣٤٣

وكيف لا تغرورق عيناه بالدموع وقد أصبحت مدينة الرشيد طعمة لنيران المغول ؟

إنه وطني مخلص وشاعر حساس ، ومسلم يتقد قلبه بالإيمان . ولم تكن نظرته الوطنية نظرة إقليميسة ، لذلك كان حزنه على سقوط بغداد أكثر من الجميع ، وبدأ يفكر في الخطر الذى يتهدد وطنه حلب ويتهدد بلاد الشام .

ابن العديم في سفارته السياسية

وتساءل ابن العديم ما عساه يستطيع أن يعمل ؟ هل في مملكة الناصر يوسف هذه القوى المنيعة التي تستطيع أن تصد هجوم التتر ؟ كان ابن العديم يفكر في هذا ، وكأنما هذه الكارثة ستنزل به وحده، وسرعان ماعقد مجلساً فوق العادة مع الملك . وكان كمال الدين من المقربين إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام وحلب ، بل كان صفيه ، بل كان أكثر من هذا . يقول عنه ابن فضل الله : « كان بين أهل ذلك الزمن لايجلس أحد فوقه في مجلس السلطان ، وكان الملك الناصر بن الملك العزيز يخاطبه بالوالد ، ويحكم للألف منه بواحد »

وطبيعي أن يرجع اليه في رد هذه الكارثة ، وقر الرأي أن يسافر ابن العديم إلى مصر ، مندوباً عن الملك الناصر ، يطلب النجدة من ملكها لرد عادية المغول . أي لم يكد يرجع من بغداد سنة ٦٥٤ هـ وقد سافر في مهمة توطيد العلاقة بين الخليفة والملك الناصر حتى يسافر إلى مصر سنة ٦٥٧ في مهمة سياسية خطيرة .

وعلى ما بين القطرين من مسافات شاسعة ، وعلى الرغم من صعوبة

السفر فى ذلك الزمن ، وبرغم شيخوخته ، فإنه لم يتردد فى السفر. إنه من بيوتات حلب الكريمة ، وهو زعيم قد سيطر على الموقف بعلمه وأدبه ودرايته وحكمته ، فما راحته وما شيخوخته فى سبيل إنقاذ وطنه ؟ إذن ، فليسافر إلى مصر .

وسافر معتمداً على ماحباه الله من ذكاء وعلم ومقدرة وسياسة ، وماله من كلمة مسموعة عند ذوى الرأى من رجالات البلاد العربية . وكانت شهرته قد سبقته إلى مصر ، بعد سفرته إلى بغداد وبعد توليه منصب قاضى القضاة وبعد توليه الوزارة مرتين : الأولى للملك العزيز والثانية للناصر آخر بنى أيوب. نعم ، لقد استفاضت شهرة ابن العديم. ولم تقف هذه الشهرة فى حدود حلب بل تخطتها إلى الآفاق العربية .

ولم يكن السفر فى ذلك الحين بالسيارة أو بالطيارة ، ولا بالباخرة أو القطار ، بل كان على الدواب . وهل يستطيع هذا الشيخ الجليل أن يقطع هذه المسافة الطويلة ، أى أن يقطع ثلاثين يوماً على دابة ، لا : لقد هيئت له محفة تحمله بين بغلين .

وهكذا ، فقد بارح حلب ونفسه قلقة على المصير المحزن الذى يرتقب عاصمة الحمدانيين بعد كارثة عاصمة العباسيين .

ووصل إلى مصر . .

ولكن ماذا كانت عليه مصر ؟

كانت من الفوضى والاضطراب بما لا يدعو للاطمئنان ، لقد ظلت فترة بدون سلطان ، ثم حكمها مملوك تركى من مماليك الصالح نجم الدين أيوب — نعم كانت مصر محكومة من الأمير التركمانى — الملك المعز أيبك الذى تزوج شجر الدر ، ولكن ملكه لم يطل ، فقد أراد أن يتزوج ببنت الملك الرحيم صاحب الموصل ، وأنت تقدر ماتفعله الغيرة فى قلوب النساء وفى قلب ملكة كشجر الدر . فما كان منها إلا أن قتلته ، ولمقتله قصة ليس هنا مكان لسردها .. وقد حكم مصر بعده ولده الملك المنصور على وهو صبىّ غِر ، وكان كأبيه غير محبوب بين من المصريين الذين كانوا يتطلعون إلى الملك الناصر .

نعم ، وصل ابن العديم إلى مصر بعد سفر مضن طويل ، وقد تحمل هذه المتاعب المرهقة برغم شيخوخته ؛ فاحتفت به مصر حفاوة بالغة ؛ احتفى به الملك والأمراء والأعيان والعلماء ؛ ونزل فى ضيافة السلطان في قصر الكبش (١) وتوافدت رجالات مصر للسلام

(١) الكبش يطلق على الجزء الشمالى الغربى من جبل يشكر حيث المنطقة الواقعة غربى جامع ابن طولون — النجوم الزاهرة — ج ٧ ص ٧٢ ويقول المقريزى فى خططه — ج ٢ ص ١٣٣ أثناء كلامه عن مناظر الكبش إن هذه المناظر كانت على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى وإن الملك الصالح نجم الدين أيوب لما أنشأ هذه المناظر سماها الكبش لوقوعها فوق الجبل ولا تزال هذه المنطقة تعرف اليوم باسم قلعة الكبش بشارع مراسينا بقسم السيدة زينب

عليه والترحيب ؛ قدم عالم فذ من علماء العـــالم الاسلامى ، ومفكر سياسى هاله أن تصبح بلاد الإسلام نهبا للمغوليين الهدامين .

وانتهت مراسم التسليم ، وبدأ المؤرخ السفير بمفاوضاته ، وكان على رأس مصر الأمير قطز ، وهو ذو مطامع واسعـة ، وقد رأى أن يستغل فرصة مقدم ابن العديم ليثير قضية السلطنة مجدداً . وهكذا فقد عقد اجتماع فى دار السلطنة بقلعة الجبل ، ودعى إلى هذا الاجتماع القضاة والفقهاء والأعيان للنظر فى مهمة ابن العديم ، وفى نوع المعونة التى تستطيع أن تقدمها مصر إلى الشام فى ردّ عادية التتر . على أن الاجتماع لم يقف عند هذه الناحية فقط ، بل تعداه إلى واجب الشعب فى هذه الظروف ، والالتزامات التى تقتضيها ظروف الحرب ـ أو ظروف ردّ عادية العـدو ـ وما يجب على الشعب وما يجب على الحكومة . وأدلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام برأيه ، وهو رأى لا يقل فى صرامته عما تفرضه الحكومات من هذه الأنظمة الشديدة التى شهدناها فى هذه الحرب والحرب الكبرى الأولى .

على أن السلطان لم ينبس ببنت شـفة فى هذا المجلس ؛ ويعلل المؤرخون ذلك بصغر سنه وعدم معرفتـه الأمور ، ولهج النـاس بضرورة خلع المنصور وتوسيد السلطنة إلى قطز ، ويظهر أن ابن العديم

لم يرقه هـذا التصرف ، ولـكن الأمير قطز أوضح لابن العديم أن مصلحـــة الدولة تقضى بذلك ، لأن المنصور صبى لا يحسن تدبير الملك ، ولا بد فى مثل هذه الظروف العصيبة من أن يقوم بأمر الملك رجل ذو مكانة وشهامة ، يطيعه الناس وينتصب للجهاد لرد عادية الأعداء وغاراتهم المخيفة (١)

ويبدو لى أن ابن العديم كان يود ألا تقع هذه الأمور أثناء وجوده فى مصر ، وهو ضيف على السلطان ، ولـكن البلاد العربية فى خطر ، وهولاكو قد اجتاز بغداد فى طريقه إلى حلب . وقطز من أقوى أمراء مصر ، والمصريون يرمون بحكم هذا الصبى الغر . إذن ، فما كان منه ، بعد أن صرح قطز بأنه لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع ما لم يوسد الأمر اليه — ما كان من ابن العديم إلا أن نادى مع الجميع : ليس لدفع هذه الـكارثة غيرك .

وهكذا ، فقد خلع الملك المنصور فى الحال وبويع الأمير قطز ، ولقب بالملك المظفر سيف الدين ، وسرعان ما جهز حملة كبرى إلى البلاد الشامية للانضمام إلى جيش الملك الناصر ومقاتلة هولاكو لدفع هذا الخطر الذى يهدد البلاد العربية من فراتها إلى برداها إلى نيلها .

(١) النجوم الزاهرة ص ٧٣ ج ٧

كان الملك الناصر قد بارح حلب إلى دمشق ليعلن التعبئة العامة وقد جمع جيشاً من الشام ناهز مائة ألف جندى ما بين عرب وعجم ، وكان سفيره ابن العديم قد استطاع أن يهيىء الرأى العام المصرى ورجال الدولة للاشتراك فى دفع عدوان التتر ، برغم ما كان بين الملك الناصر والملك المظفر ـ سيف الدين قطز ـ من صلات غير ودية . ولكن مطامع هولاكو لم تكن لتقف عند بلاد الرافدين ، بل كان يطمع في مصر بعد أن يستولى على بلاد الشام .

واقترب الخطر ودخل هولاكو مدينة حلب سنة ٦٥٨ هـ بعد حصار دام عشرة أيام دافعت فيها دفاع الأبطال ، قتل فيها خلق كثير ، واستبيحت الدماء ، وامتلأت الطرقات بالقتلى ، وتهدمت البيوت والجوامع والمساجد والبساتين حتى أصبحت المدينة موحشة.

يقول المؤرخون إن الحلبيين قد قتلوا من جنود هولاكو عدداً كبيراً. وهذا الذى حمله ، بعد أن دخلها ، أن يعيث فيها ويأخذ منها مائة ألف أسير ، عدا ما صادره من أموالها ونفائس كنوزها.

ومن حلب إلى دمشق ... وما زال حتى اقترب من الأراضى الفلسطينية ، فأرسل إلى الملك المظفر ـ قطز ـ إنذاراً شديد اللهجة يطلب اليه التسليم بدون قيد ولا شرط . ولكن سقوط بغداد

وحلب ودمشق وما أنزله هذا الطاغية من البلاء والكوارث بالنفوس والحرمات المقدسة قد أثار حفيظة المصريين الذين هبوا لإعلان الجهاد على هذا الجلاّد الأحمر .. وهكذا كان ، وبدون أن نفصل وقائع هذه المعركة الخطيرة ، نقول إن النصر قد كتب على يد قطز ـ الملك المظفر سيف الدين ـ والأمير بيبرس البندقدارى [1] ـ فقد هُزم هولاكو وجنده في «عين جالوت» ، وكانت تلك المعركة من المعارك الحاسمة فى التاريخ ...

وقبل أن يُهزم هولاكو كان الملك الناصر قد استسلم اليه فأنس به وأكرمه وأجرى عليه راتباً ووعده بمملكتى الشام ومصر وكتب له فرماناً بذلك ، ولكن ما كادت معركة «عين جالوت» تقضى على آمال هولاكو حتى صحب الملك الناصر إلى سلماس وهى مدينة فى أزربيجان — وقتله مع جملة من أصفيائه الأمراء .

أما ابن العديم فظل فى مصر ، ولم يكد يسمع بجلاء التتر عن بلاد الشام حتى اعتزم العودة الى حلب ليرى ما نزل بها من بلاء ...

نعم عاد إلى مسقط رأسه ، فماذا رأى ؟

كل شىء يدعو فيها الى الوحشة والرعب ، مدينة صامتة كأنها

---

(١) الظاهر بيبرس

مقبرة ، لم يتبين فيها تلك المحاسن التى أوحت اليه أن يكتب عنها أربعين مجلداً ، نعم ، لم تعد فى نظره تلك الروضة الغناء . . أين قصر الملك الناصر ؟ أين بيوت آل العديم ؟ مافعل الله بجوامعها وقصورها ؟ لقد أصبح أكثرها خراباً يباباً . . ولم يُطق المقام فى بلده . . فما كان منه إلا أن قفل راجعا الى مصر بعد أن ودع مدينة الحمدانيين بقصيدة حزينة . ومن المؤسف ألا تحفظ لنا النصوص القديمة غير عدة أبيات متقطعة من هذه القصيدة الطويلة التى يصف فيها تهديم التتر لحلب بقوله :

هو الدهر ماتبنيه كفاك يهدم ... وإن رمت إنصافاً لديه ، فتظلم
أباد ملوك الفرس جمعاً وقيصرا ... وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم ... وما منهم إلا مليك معظم
وملك بنى العباس زال ولم يدع ... لهم أثراً من بعدهم وهم هم
وأعتابهم أضحت تداس وعهدها ... تباس بأفواه الملوك وتلثم
وعن حلب ماشئت قل من عجائب ... أجل بها ياصاح إن كنت تعلم

ومنها :

فيالك من يوم شديد لغامه ... وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى وهى ضخم

إلى أن قال :

ولكنما لله في ذا مشيئة فيفعل فينا ما يشاء ويحكم

ورجع إلى مصر ، ينوى الاقامة فيها بعد أن توثقت معرفته بكثيرين من رجال الدولة والعلماء . نعم ، لقد آلمه أن يرى الشهباء قد آلت خرابا على أيدى التتر ، فنزح عن بلده الى مصر التى عرفت مكانته وقدره فاستوطنها ، ولكن لم يطل مقامه فيها حتى وافاه القدر سنة ٦٦٠ هـ

ودفن بسفح المقطم من القرافة بالقرب من المسجد المعروف بالعرض ، بتربة موسى بن يغمور .

الدفاع عن أبي العلاء

رسالة ابن العديم

نقف الآن عند هذا الحد من إبراز شخصية ابن العديم — شخصيته الأدبية وشخصيته السياسية ، وما رافق حياته من أحداث فذة فى تاريخ العالم الاسلامى،لنعلم أى فذ انتصب للدفاع عن أبي العلاء .

إنه لم يكن أديباً وسطا ، بل كان إماماً من الأئمة العظام وقد آلمه أن يشيع الجهل فى أنصاف العلماء وأن يحكموا عليه حكمهم القاسى ، فتوفر على دراسة كل ما كتبه أبو العلاء أو أكثره ، فلم يجد فيه هذه الارهاصات التى رموه بها ؛ بل رأى أديبا فذاً تفاخر به العربية ويعتز به الاسلام ، شاعرا فيلسوفا قل أن تجود به الأجيال . ورأى داء الحسد فاشياً ، والناس تذهب مذاهب ملتوية فى تسفيه الأحلام ، فكتب رسالته ، وهى آية فى القوة ، تضمنت مقدمتها كلمات قدت من نار ، فقد عرض الى قيمة أبى العلاء الأدبية ، والى رأى المتخرصين فيه ، والى ما يصيب البشر من لؤم الطباع ، ومازال يصب عليهم جام غضبه ونقمته إلى أن أظهره فى طليعة المفكرين المصلحين . ولا نسترسل فى الالماع الى هذه المقدمة،

وسيتلوها القارئ بنصها بعد قليل ؛ وأنا واثق أنه سيعيد تلاوتها أكثر من مرة ، لأنها قطعة من الأدب الخالص — الأدب الحار الذى يدافع عن فكرة ومبدأ ؛ ولا يضيرها أنها مسجعة . فهى من هذا اللون ذات الجرس الموسيقى .

لقد صور فى هذه المقدمة أبا العلاء أجمل تصوير ، عرض الى فكرته ، والى خصومه ، والى مذهب التحاسد فى عصره ، فكان محامياً لبقا من أبلغ المحامين الذين يتصدون للدفاع عن قضايا الفكر .

وينتهى من هذه المقدمة الى الالماع الى نسبه ومولده ؛ ثم الى نشأته وعماه وخلقته . ثم يتحدث عن اشتغاله بالعلم ، وشيوخه الذين أخذ عنهم ، كما يتحدث عن تلاميذه ومن روى عنه من العلماء والأدباء والمحدثين . ثم يشير باسهاب إلى تصانيفه ومجموعاته وتآليفه وأشعاره ورسائله ، وبعد ذلك يكتب لنا ابن العديم قصة سفر أبى العلاء الى بغداد وعودته منها ثم انقطاعه فى منزله عن الناس ..

وبعد أن يجلو هذه الصفحات من حياته يتحدث عن ذكائه وفطنته وسرعة حفظه وألمعيته وتوقد خاطره وبصيرته ومقامه عند الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء ، ثم يتناول الكلام عن كرمه وجوده على قلة ماله ونزارة موجوده ، وعن قناعة نفسه وشرفها

وعفتها، الى غير ذلك مما يتصل بأبى العلاء .

وكأنه أحب أن يبرز شخصيته الفذة من خلال دفاعه ، فوفق فى رسالته هذه أعظم توفيق ، ودل على واسع علمه وعلى قوة اتزانه ودقة أحكامه .

ولا شك أن هذه الرسالة ، لزمنها ، قد أخرست الكثيرين من المتخرصين الذين يرمون الكلام على عواهنه دون تدقيق أو تمحيص ، وأكثرهم يذهبون — بنزعة التقليد — إلى الحكم على هذا وذاك بالالحاد دون روية وإمعان . ولا يزال كثيرون الى يومنا هذا يذهبون الى أن المعرى من المعطلين دون أن يكونوا قد درسوا أقواله أو حققوا خفايا معتقده ، بل حكموا عليه من قراءة بيت قد يكون الشاعر رمز فيه إلى أشياء تدق حتى على أقرب المتصلين به ، ونستطيع أن نقول إن المعرى كان من أكابر الشعراء الرمزيين . وإن كان لا يقصد الرمزية لذاتها كما يفسرها النقاد الفرنسيون ، ولا حاولها كما يحاولها شعراء العصر . . ولكن كان المعرى يرمز إلى أشياء يعرضها فى ضباب من الألفاظ المعقدة ، تواريا عن الأفهام البليدة التى كانت تقف له بالمرصاد ، وتفسر كلماته على غير مدلولها ولا تتورع أن تنحله كلاماً لم يقله .

ولكن الحق لا بد من أن يسفر لذى عينين ، وسيظل الناس فريقين : فريق المفكرين الذين يسمون بآرائهم ومثلهم العليا الى السماكين ، وفريق البله الحشويين الذين ينزلون بمداركهم إلى أسفل السافلين . وحسب المفكرين أن يظلوا فى القمة ، لا يلتفتون الى هذا الهراء الذى تلوكه ألسنة المرهصين الثرثارين . وسيظل ما كتبه أبو العلاء آية من أجمل آيات الفكر البشرى ، وحسبه فخراً أن يدافع عنه رجل فى كفاية ابن العديم . وهو من عرفت من المكانة الأدبية والفكرية وعلو القدر فى مختلف الميادين .

***

والآن بعد هذه التوطئة ، نتكلم عن كتاب ابن العديم الذى ألفه فى الدفاع عن أبى العلاء ، وسماه « الإنصاف والتحرى فى دفع الظلم والتجرى ، عن أبى العلاء المعرى » والكتاب مفقود[1] وغير مطبوع ، عثر على نسخة مخطوطة فى خزانة السيد مرعى باشا الملاح أحد أعيان حلب ، وقد سمح بنسخ صورة عنها لمكتبة المجمع العلمى العربى ، كما نسخ صورة عنها الشيخ راغب الطباخ ونشرها

(١) يقول البحاثة المرحوم أحمد تيمور باشا فى كتابه أبو العلا المعرى ص ٧ أثناء كلامه عن بيته « وذكروا أن كمال الدين بن العديم عقد فصلا لتراجمهم وأخبارهم فى كتابه

فى كتابه « أعلام النبلاء » والمخطوطة فى ٨٥ صفحة بقطع ربع عادى(١) وهى مخرومة من أولها وآخرها ، وهى غير كاملة ، فما تكاد تقرؤها حتى تشعر أن خصوم أبى العلاء وقد قضوا على الكثير من كتبه ، قد قضوا على هذه الرسالة أيضاً

لقد كتب المعرى مايقرب من مائة مؤلف ؛ فأين هى ؟.. ليس بين أيدينا غير كتب معدودة قد لاتتجاوز الخمسة ، وكما استطاع الجناة — وجناة الفكر أشد خطراً على الإنسانية من الجناة الذين يرتكبون جرائم القتل — أن يقضوا على مؤلفات أبى العلاء ، فقد استطاعوا أن يقضوا على الكثير من الكتب التى دافعت عن كرامة العقل فى شخص أبى العلاء .

وتشاء الأقدار أن تحفظ لنا مقدمة الكتاب وهى وحدها كافية لأن ترينا بأية عاطفة صادقة ، وبأى تفكير حر دافع القاضى كمال الدين عن الشاعر أبى العلاء ، وقد علمت من تاريخ ابن العديم أنه إمام من أئمة الدين ، شغل منصب قاضى القضاة مدة طويلة ، وعرف بورعه وتقاه ، وكان لعائلته هذا المركز الدينى الخطير الذى يفرض

« دفع التجرى عن أبى العلاء المعرى » الا أنى لم أظفر بهذا الكتاب مع كثرة بحثى وتنقيبى عنه » .

(١) مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ٢ ج ٨ ص ٢٣٦

عليها أن تتملق عواطف الجمهور ، ومع ذلك فقد رأى ابن العديم أن أبا العلاء مظلوم، فانبرى لانصافه من ظالميه ، وكان رائده الإنصاف والتحرى فى دفع هذه المظالم أو هذا الظلم والتجرى الذى صبّه حساده عليه ... وهذا الذى يجعل لكلام ابن العديم أثره ومغزاه .

واستمع الآن كيف يدافع عنه ، وبأى أسلوب حار ولسان ذرب يصب جام غضبه ونقمته على خصومه ، ولاشك أنك متحس في مطاوى كلامه روح الثورة العاتية ، وكل ما أرجوه من القارئ الكريم أن يتمهل فى القراءة خشية من أن يضيق بأسلوب القرن السادس ، ومؤرخنا وإن التزم السجع فى دفاعه فان سجعه لا تنفر منه الآذان ، ونحس فى بعض المواقف بجرس اللفظ قد مازج جمال الفكرة : حتى لينسى القارئ أنه يقرأ كلاما مسجعاً ، ولا نسهب فى الكلام عن المقدمة ، فحسبنا هذا الالماع ، ولنترك لابن العديم أن يقدم كتابه بقلمه .

مقدمة ابن العديم

قال ابن العديم :

« الحمد لله الكريم العادل ، ذى الفضل الشامل ، والإحسان الكامل ، محق الحق ومبطل الباطل ؛ أحمده على مامنحنا من التوفيق وهدانا به إلى سواء الطريق . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة من خلص له يقينه ، وصح بالوحدانية مذهبه ودينه ؛ وأشهد أن محمداً عبده الأواب ، ورسوله المبين للصواب ؛ أرسله بالآيات الباهرة ، والحجج الزاهرة ، والدلائل الظاهرة ، ففرق بين الصحيح والسقيم . والمعوج والقويم ، وهدى أمته الى الصراط المستقيم ، صلى الله عليه وعلى آله الأكرمين ، وأصحابه الهداة المنتخبين ، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد ، فانى وقفت على جملة من مصنفات عالم معرة النعمان ، أبى العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان ، فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان ، مودعة فنونا من الفوائد الحسان ، محتوية على أنواع الآداب ، مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب ؛ لا يجد الطامح فيها سقطة ، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة .

ولما كانت مختصة بهذه الأوصاف ، مميزة على غيرها عند أهل الإنصاف ، قصده جماعة لم يعوا وعيه ، وحسدوه إذ لم ينالوا سعيه، فتتبعوا كتبه على وجه الانتقاد ، ووجدوها خالية من الزيغ والفساد، فحين علموا سلامتها من العيب والشين ، سلكوا فيها معه مسلك الكذب والمين ، ورموه بالالحاد والتعطيل ، والعدول عن سواء السبيل . فمنهم من وضع على لسانه أقوال الملاحدة ، ومنهم من حمل كلامه على غير المعنى الذى قصده ، فجعلوا محاسنه عيوباً ، وحسناته ذنوباً ، وعقله حمقاً، وزهده فسقاً، ورشقوه بأليم السهام ، وأخرجوه عن الدين والإسلام ، وحرفوا كلمه عن مواضعه ، وأوقعوه فى غير مواقعه .

ولو نظر الطاعن كلامه بعين الرضا ، وأغمد سيف الحسد من عليه انتضى ، لأوسع له صدراً وشرح ، واستحسن ماذم ومدح . لكن جرى الزمن على عاداته ، فى مطالبته أهل الفضل بتراته وقصدهم بإساءاته ، فسلط عليهم أبناءه ، وجعلهم أعداءه ، فقصدوه بالطعن والاساءة واللبيب مقصود ، والأديب عن بلوغ الغرض مصدود ، وكل ذى نعمة محسود .

ومن سلك فى الفصاحة مسلكه ، وأدرك من انواع العلوم

ما أدركه ، وقصد فى كتبه الغريب ، وأودعها كل معنى غريب ، كان للطاعن سبيل الى عكس معانيها وقلبها ، وتحريفها عن وجوهها المقصودة وسبها .

ألا ترى الى كتاب الله العزيز ، المحتوى على المنع والتجويز ، الذى لا يقبل التبديل فى شىء من صحفه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كيف أحال جماعة من أرباب باطل الاقاويل ، تأويله على غير وجوه التأويل : فصرفوا تأويله الى ما أرادوا ، فما أحسنوا فى ذلك ولا أجادوا ! حتى إن جماعة من الكفار ، وأرباب الزلل والعثار ، تمسكوا منه بآيات ، جعلوها دليلا على ما ذهبوا إليه من الضلالات .

فما ظنك بكلام رجل من البشر ، ليس بمعصوم إن ذل أو عثر ، وقد تعمق فى فصيح الكلام ، وأتى من اللغات بما لا يتيسر لغيره ولا يرام ، وأودعها في كلامه أحسن إيداع ، وأبرزها فى النظم البديع والأسجاع ، إذا قصده بعض الحساد ، فحمل كلامه على غير المراد !

وقد وضع أبو العلاء كتابا وسمه بـ «زجر النابح» ، أبطل فيه طعن للزرى عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح ، وإتيانه

الصريح ، ووجه كلامه الفصيح ، ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه بـ «زجر الزجر» بين فيه مواضيع طعنوا بها عليه بيان الفجر ، فلم يمنعهم زجره ولا اتضح لهم عذره ، بل تحقق عندهم كفره ، واجترؤا على ذلك وداموا ، وعنفوا من انتصر له ولاموا ، وقعدوا فى أمره وقاموا ؛ فلم يرعوا له حرمة ، ولا أكرموا علمه ، ولا راقبوا إلاً ولا ذمة ، حتى حكوا كفره بالأسانيد ، وشددوا فى ذلك غاية التشديد ، وكفره من جاء بعدهم بالتقاليد .

فابتدرت دونه مناضلا ، وانتصبت عنه مجادلا ، وانتدبت لمحاسنه ناقلا ، وذكرت فى هذا الكتاب مولده ونسبه وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينه الصحيح ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوى وجده ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصده ، وسميته كتاب :

«الإنصاف والتحرى، فى دفع الظلم والتجرى ، عن أبى العلاء المعرى »

وبالله التوفيق والعصمة ، وإليه المرجع فى كل وصمة ؛ وهو حسبى ونعم الوكيل .»

***

من هذه المقدمة نعرف أى نهج سلكه ابن العديم فى الدفاع عن أبي العلاء . لقد قرأ ما كتبه بإمعان ، وقرأ ما كتبه خصومه بامعان أيضاً . وازن بين أدب أبي العلاء ونهجه الحر ، وبين مفتريات خصومه وإرهاصاتهم المضللة ؛ وانتهى من موازنته الى آراء سديدة دفعته الى كتابة رسالته هذه . وهو إذ ينصفه ويرد فيها على حاسديه يكشف ، خلال كلامه ، عن خصائص عبقريته . وهذه الصفحات القليلة من المقدمة ترينا مدى حيوية الفكر الحر — فكر ابن العديم القاضى المؤرخ السياسى — ولون النضال عن الآراء الحرة التى يحاول المتزمتون ، في كل عصر ، تشويه جمالها ووأدها إن استطاعوا الى ذلك سبيلا

***

ونتتقل الآن الى فصول الكتاب ؛ نقرأ سيرة شيخ المعرة بقلم قاضى قضاة حلب .

نسب أبي العلاء وعائلته

لقد بدأ كتابه ، بعد المقدمة ، بالكلام عن نسب أبي العلاء . وللعرب عناية كبرى بالأنساب رغم ما يعتور هذه العناية عند بعض المؤرخين من تخليط وأوهام أحيانا . وبديهى أن يهتم ابن العديم بنسبه ، وأن يبدأ هذا الفصل بذكر اسم ابي العلاء وأسماء آبائه وأجداده . وأحب أن أعتقد أن القارئ الكريم يعرف أن اسم أبي العلاء هو أحمد وأن اسم أبيه هو عبدالله واسم جده سليمان . وقد لا يهمه أن يعرف أكثر من هذا ، ولذلك لا أريد أن أكرر هذه الأسماء أو هذا النسب الطويل الذى لم يكتف ابن العديم أن يصله بقضاعة وقحطان ، بل وصله بهود وإدريس وشيث وآدم ! ولو ذهبت أثبته لضاق به القارئ ، وهذا الذى دفعنى أن أهمله عمداً مراعاة لأذواق الكثير من القراء الذين يضيقون بهذا التسلسل الممل الذى يصرفهم أحيانا عن متابعة القراءة ؛ ولأن أكثر من ترجم له من القدماء والمحدثين قد أثبتوا هذا النسب في ترجماتهم ، وهو لا يختلف عما أورده ياقوت وابن خلكان وسواهما فى الماضى وأحمد تيمور باشا وغيره فى عصرنا هذا .

وفى هذا الفصل ، نقع على استطرادات أدبية وتاريخية طريفة لا بأس من الإلماع اليها أو إيرادها بنصها، وقد كتب فى هذا الفصل تاريخ بيت أبى العلاء : من سبقه من الأدباء والأجداد ، وما تحدر عن هذه العائلة من الأبناء والأحفاد ، ممن لهم خصائص ذهنية جديرة بالذكر والتنويه ، كما كتب آراء طريفة عن البطون العربية وعن ذوى المكانة المرموقة ، ممن لهم أيضا صلة بسيرة أبى العلاء .

وهكذا ، فسيقرأ القارئ فى هذه الفصول ، صفحات من أسلوب ابن العديم ونهجه ، وهو مؤرخ كتب آلاف الصفحات فى التاريخ والأدب . بل سيقرأ سيرة أبى العلاء بقلم أديب مؤرخ عاش فى القرن السابع الهجرى، فامتزجت حياته بالأدب والسياسة والدين.

قال مؤرخنا الحلبي ، وهو يتحدث عن قحطان وتيم اللات وتنوخ ، عن الروم والفرس ، عن معرة النعمان فى الجاهلية والإسلام وما إلى ذلك مما يتصل بالتنوخيين أجداد أبى العلاء :

وقحطان : هو مجتمع قبائل اليمن بأسرها . وتيم اللات : مجتمع تنوخ بأسرها ، وإنما سموا « تنوخ » لأنهم تنخوا بالشام ، وقيل بالحيرة ، أى أقاموا ، والتنوخ هو المقام فى الموضع ، يقال تنخ فى الأمر أى رسخ فيه فهو تانخ . وكانوا أقاموا على مالك بن زهير

ابن عمر بن فهم بن تيم اللات ، ونزلوا معه الحيرة فاختطوها وبنوا فيها الأبنية وعمروها ، وهم أول من عمر الحيرة ونزلها .

وكان لهم قوة وبأس وغناء وكثرة ، فغزاهم سابور الأكبر ملك فارس في جيوش عظيمة ، فقاتلوه قتالا شديداً . ولم تزل الحرب بينهم أياماً ، فلحقت بسابور جيوشه وأمراؤه . فضعفت « تنوخ » عن مقاومته وانكشفت ، فسار معظمهم ومن فيه نهوض منهم الى الضيزن بن معاوية التنوخي ، الى الحضر ، فأقاموا بها . وملكوا ماجاورهم من البلاد ، وأجلوا سائر الأمم عنها ، إلا من أدى اليهم الجزية ، فاشتدت شوكة تنوخ ، وعظم بأسهم فملكوا عليهم الساطع وهو النعمان بن عدي ، وإنما سمى الساطع لجماله وبهائه وكان طويلا وسيما جسيما جوادا شجاعا ، فملك عليهم برهة . وكانت له حروب ووقائع مع ملوك الفرس ، وشن الغارات على السواد ، فسميت « تنوخ » يومئذ « الدواسر » لما ظهر من شدتهم وبأسهم . وبعض الجهال يقول : إن معرة النعمان تنسب اليه ، وليس بصحيح . بل تنسب الى النعمان بن بشير الانصاري . وكان واليا على حمص وقنسرين في ولاية معاوية وابنه يزيد ، ومات للنعمان بها ولد ، وجدد عماراتها فنسبت اليه ، وكانت تسمى أولا « ذات

القصور » . وقيل إن « سياث » كانت المدينة وهى آهلة فخرج ابن النعمان بن بشير يتصيد ، و كان موضع المعرة أجمة ، فافترسه السبع فجزع عليه ، و بنى له موضعاً عند قبره ، فبنى الناس لبنائه ، فنسبت معرة النعمان اليه لذلك . و إنما نسبت الجهال المعرة إلى النعمان بن عدى المعروف بالساطع ، لأن أهلها كلهم أو بعضهم من بنى الساطع ، فظنوا أنها منسوبة اليه ، ولما هلك الساطع تفرقت كلمة « تنوخ » و تشتت أمرهم ، و تنازعوا الرياسة بعده .

ثم إن ملك الفرس غزا الروم ، فأذرع فيهم القتل ، وسبى الذرارى ، وخرب العمائر ، فأنفذ ملك الروم إلى « تنوخ » وكانت أقرب القبائل اليه في ذلك العصر ، فاستنجدهم على ملك الفرس ، فأنجدوه ، وقاتلوا معه قتالا شديدا ، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم ، لتظهر له طاعتهم وغناؤهم ، فأجابهم إلى ذلك ، فقاتلوا الفرس . وظفروا بهم ، وقتلوهم قتلا ذريعاً ، و أبلوا بلاء عظيما ، فأعجب بهم ملك الروم ، وفرق فيهم الدنانير والثياب وقربهم وأدناهم ، وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة ، وهى مدينة بقرب الأحص على جانب البرية ، وإليها ينسب اللسان السوريانى .

هذا منتهى أمرهم فى الجاهلية . فلما جاء الأسلام ، قدموا مع أبى عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنه ، وكانوا أشد من معه من العرب شوكة وأكثرهم عدداً : فافتتحوا البلاد ، واختطوا الخطط ، ونزلوا قنسرين ومنبج وسورية وحماة ومعرة النعمان وكفر طاب وغيرها من بلاد الأسلام ، وتغلبوا عليها ، وكانوا على دين النصرانية فامتنعوا من أداء الجزية ، وقالوا : ما نؤدى مايقع عليه اسم الجزية ، وكانوا أهل قوة و بأس ، فلما سار عمر رضى الله عنه إلى الشام قدموا عليه فقال : ما أقنع منكم إلا بالدخول فى الأسلام أو السيف ، وأمهلهم سنتين ، ثم إنه ألزمهم مايلزم أهل الذمة من الجزية فأبوا عليه ، وقالوا : خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية ، فأبى عمر ، ثم أجابهم إلى أن يأخذها على اسم الخراج ، فاستجاب له قوم منهم ، وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبى العلاء وأجداد بنى الفصيص ولاة قنسرين ، وأسلم بعضهم فى أيام أبى عبيدة ، وبعضهم فى أيام المهدى بن المنصور ، ودخل منهم قوم إلى بلاد الروم مع جبلة بن الأيهم فى النصرانية

وتنوخ من أكثر العرب مناقب وحسباً ، ومن أعظمها مفاخر وأدباً ، وفيهم الخطباء والفصحاء والبلغاء والشعراء .

وبعد أن يلمع ابن العديم إلى البيوت التى تفرعت عن تنوخ

والتى تحدر منها أبو العلاء ، وبعد أن يذهب فى هذه الاستطرادات التاريخية ، يبدأ بتاريخ أجداد أبى العلاء فيقول :

وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بنى سليمان ، وهو سليمان بن داوود بن المطهر ، وحيث انتهى بنا القول إلى التنبيه على كثرة القضاة والفضلاء من بنى سليمان ، فنذكر الآن من اشتهر منهم بذلك بمعرة النعمان : فمنهم أبو الحسن سليمان ابن أحمد ، أول من تولى منهم معرة النعمان ، وقال بعض الناس : إنه ولى قضاءها فى سنة تسعين ومائتين إلى أن مات ، وبعضهم يقول : إن الذى تولى القضاء سنة تسعين ومائتين هو ابنه ، وهذا هو جد جد الشيخ أبى العلاء . ومنهم ولد المذكور ، وهو جد أبى الشيخ أبى العلاء ، أبو بكر محمد بن سليمان بن أحمد ، ولى القضاء بمعرة النعمان بعد موت أبيه فى حدود الثلاثمائة ، وقيل هو الذى تولى سنة ٢٩٠ وكان فاضلا أديباً ممدوحاً ، وفيه يقول أبو بكر الصنوبرى :

بأبى يا بن سليما ... ن لقد سدت تنوخا
وهم السادة شبا ... ناً لعمرى وشيوخا
أدرك البغية من أض ... حى بناديك منيخا
وارداً عندك نيلا ... وفراتا وبليخا

واجداً منك متى استصـ ـرخ للمجد صريخا
في زمان غادر الهما ت في الناس مسوخا

وإذ يصل إلى أجداده الأدنين ، يؤرخ لهم بإيجاز . يذكر نبذة من حياتهم ، وما تميزوا به من الفضائل ، وماشغلوه من المناصب وماقرأوه من كتب ، وماقالوه من بدائع الشعر . وقد يروى لبعضهم مقطوعات مما يقتضيه سياق الكلام . فهذا القاضي أبو بكر يصف شمعة كانت تؤنس الجلاس في ليلة طاب فيها اللهو وصفا السمر :

وصفراء كالتبر مقدودة تسر وتؤنس جلاسها

ومنها : تكون لطالب مقياسها فويق الذراع إذاقاسها
تموت إذا أهملوا أمرها وتحيا إذا قطعوا راسها
ويفنى الدجى بسنى نورها إذاشهدالقبض أنفاسها
وتبكى فيقطر من رأسها نجوم ترصع لباسها
يرى الشرب نجابها طالعاً وشمساً إذاجُليت كاسها
أنسنا بها ورأينا السرور فلاعدم الشرب إيناسها

وهذا ابنه أبو الحسن الذى تولى قضاء المعرة ، ثم قضاء حمص التى أشجته نواعيرها ، فوصف أنينها وصفاً مشجيا ، بل وصف أنينه

على فراق صحبه ، وهمومه من وحدته ، وتذرافه الدمع على ماتصرم من أيام عمره . وصف هذه الحالات النفسية على نغماتها الشجية المحزنة :

وباكية على النهر تئن ، ودمعها يجرى
تذكرنى بأحبابى وحالى ليلة النفر
وأذرى مثلما تذرى وأسعدها وماتدرى !
على فقدى لأحبابى وما قد فات من عمرى !
فما هى فيه مشهور وما أنا فيه في الستر
كأنى فى بسيط الأر ض بين الناس فى قبر

وهذا أبو محمد عبد الله بن سليمان — والد أبى العلاء — الأديب اللغوى الشاعر ، فلا يعفيه من بعض مقطوعات من شعره رويها له ، وقد لا يطربنا شعر أبيه فى رثاء جاريته بقدر ما يهزنا رثاء المعرى نفسه فى أبيه ، تلك القصيدة التى اقتبس ابن العديم بعض أبياتها ، وهى تدلنا على مدى حزن أبى العلاء ودموعه الحرى على فقد أبيه :

أبى : حكمت فيه الليالى ولم تزل
رماح المنايا قادرات على الطعن

فياليت شعرى هل يخف وقاره
إذا صار « أحد » فى القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروى مبادراً
مع الناس أو يأبى الزحام فيستأنى

ويمضى ابن العديم فى حديثه عن إخوة أبى العلاء : عن أبى المجد ، عن أبى الهيثم — والأخير شاعر مجيد ، روى عنه أبو العلاء شيئاً من شعره ، ثم جمع شعره لولده زيد بن عبد الواحد ، وأورد مقطوعة كان يرويها أبو العلاء ، وهى تدلنا على مدى عناية أخيه بأثريات البلاد ، فقد قدم مرة على « سياث » فوجد بها رجلا يقلع حجارة ، فكتب على حائط من حيطانها بمول ، هذه الأبيات :

مررت بربع من « سياث » فراعنى
به زجل الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما
جنى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أمتلفها ؟ شلت يمينك ! خلها
لمعتبر ، أو زائر ، أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم
فلم أر أحلى من حديث المنازل

ولأبي المجد — الأخ الأكبر — ديوان شعر أيضاً . وله ولدان وليا قضاء المعرة ، أحدهما أبو محمد والثانى أبو الحسن ، وقد تولى أبو محمد خدمة عمه بنفسه وكان براً به ، وكان يكتب له تصانيفه ، وهذا الذى حدا أبا العلاء أن ينعم بصحبة ابن أخيه وأن يمدحه بهذا الشعر الذى يدل على مدى ما قام به هذا القاضى من إجلال لعمه أبي العلاء :

وقاض لاينام الليل عنى　　وطول نهاره بين الخصوم
يكون أبرّ بي من فرخ نسر　　بوالده ، وألطف من حميم
سأنشر شكره فى يوم حشر　　أجل ، وعلى الصراط المستقيم

ويروى لنا ابن العديم قطعة ثانية لأبى العلاء في مدح ابن أخيه :

أعبد الله ، ما أسدى جميلا　　نظير جميل فعلك غير أمى
سقتنى درها ، ودعت وباتت　　تعوذنى وتقرأ أو تسمى
هممت بأن تجنبنى الرزايا　　فرمت وقايتى من كل همى
كأن الله يلهمك اختيارى　　فتفعله ، ولم يخطر بوهمى
حمدتك فى الحياة أتم حمد　　وأيامى ذممت أتم ذم
أجدك ما تركت وأنت قاض　　تعهد مقعد أعمى أصم
جزاك البارئ ابن أخ كريما　　أبرّ بمعجز في برّ عم

ومايزال يؤرخ أجداد أبى العلاء وأحفادهم ، واحداً بعد الآخر حتى يصل إلى آخر عقب لهذه الأسرة ، لأستاذه الشيخ أبى إسحق إبرهيم الأديب المحدث الذى اعتمده الملك العادل فى مهمة فأرسله إلى حلب والموصل رسولا عنه . وكأن ابن العديم لايريد أن يترك غصناً من هذه الشجرة الباسقة إلا مرّ عليه يتأمل محاسنه ، ومايزال حتى يقتطف لكتابه بعض ثماره . فهذا مدرك ، أو أبو سهل أحد أفراد هذه العائلة الكريمة تعصف به الأسفار إلى مصر فيكتب عنها ما لا يروق محبي مصر . . ماذا ؟ لقد هجا مصر هجاء مراً ، ومع أن مصر قد عرفت بكرمها المتناهى للضيف ، وبعطفها على الغريب . فقد لقى أبو سهل أحد أحفاد أبى العلاء عنتاً وظلماً وجوراً حتى انفجر صدره بهذين البيتين :

ظلمت مصر وجارت　　　لاجرى النيل عليها
فلحى الله زماناً　　　أحوج الناس إليها

ولأبى سهل هذا شعر رواه ابن العديم فى كتابه يدل على أن الغربة آلمت أبا سهل . وأنه لقى فى سفره ألوانا من الآلم عبر عنها بهذه الشكوى الحزينة :

إذا لم تستطع سكنى بلاد　　　نشأت بها ، فكن منها قريبا

بحيث تشم نشر الريح منها　　وتسأل مخبراً عنها مجيباً
فان أشد أحداث الليالى　　على الإنسان أن يمسى غريباً
بأرض لايرى فيها صديقاً　　يسرّ به ، ولا يلقى حبيباً

***

وبعد ، فقد طال هـذا الفصل ؛ وقد أوجزت ما استطعت الإيجاز . وهكذا ، ينهى كلامه ، بعد تاريخ من اشتهر من أفراد هذه العائلة حتى الذين عاصروه ، بهذه الجملة :

« فهذه نبذة من ذكر فضلاء بنى سليمان وقضاتهم وعلمائهم ، ومن أراد استقصاء أخبارهم وفضائلهم وأشعارهم فعليه بكتابى المطول فى تاريخ حلب ، ففيه مقنع لمن قصد شيئاً من ذلك وطاب »

فأين جميع أجزاء ذلك الكتاب ؟ وهل يتاح لنا أن نردّ بعض أجزائه المتفرقة فى مكتبات الشرق والغرب إلى موطنه الأصلى ؟ وهل يقدر لنا أن ننشر هذه الموسوعة التاريخية الكبرى فى يوم ما نشراً يرضى عنه العلم والأدب ؟

أرجو ذلك !

مولده . عماه . صفة خلقه

بعد أن استوفى ابن العديم الكلام على نسب أبي العلاء وعلى أفراد عائلته فى أكثر من عشرين صفحة من هذا الكتاب ، تكلم عن مولده ومنشئه وعماه وصفة خلقه ، فقال :

« أما مولده فبمعرة النعمان ، وأمه هى بنت محمد بن سبيكة ، وأظن أن أباها من أهل حلب ، وخاله على بن محمد سبيكة الذى يقول فيه :

كأن بنى سبيكة فوق طير

يجوبون الغوائر والنجادا

وتوفيت والدته وهو غائب عنها حين رحل إلى بغداد سنة أربعمائة ، وقد رثاها بأبيات هى فى « سقط الزند » وقرأت بخط أحمد بن على بن عبد اللطيف المعرى ؛ وهو أحد من قرأ على أبي العلاء وروى عنه ؛ ويعرف بابن زريق ، قال : وولد - يعنى أبا العلاء - يوم الجمعة ؛ عند غروب الشمس ، لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة .

ونقلت من خط الأديب الأستاذ أبي عبد الله محمد بن على العظيمى الحلبي فى تاريخه ، وأنبأ به عند المؤيد بن محمد النيسابورى وغيره ، قال : وفيها — « يعنى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة » ولد الشيخ أبو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان التنوخى بمعرة النعمان من رقعة الشام . قال العميد : ولد أبو العـــلاء فى سنة ست وستين .

وهـذا العميد الذى نقل عنه العظيمى ، هو العميد أبو يسر ، خير بن محمد بن على التنوخى المعرى . وهذا ليس بصحيح .

وذكر الوزير أبو غالب ، عبد الواحد بن مسعود بن الحصين الشيبانى فى كتابه الذى جمعه فى « المختار من أشعار الشعراء » وذكرهم على حروف المعجم ، وأخبرنا بذلك إجازة عنـه الحافظ بوعبدالله محمد بن محمود بن النجار ، قال : «ولد — يعنى أبا العلاء — لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة ، ومرضت عيناه فى سن الطفولية وذهبتا . والصحيح فى مولده ما أخبرنا به أبو اليمن ، زيد بن الحسن بن زيد الكندى كتابة وقراءة عليه».

وعلى هذا النسق يروى أكثر من رواية واحدة تدل على مدى تقه ومايزال ينفى رواية ويثبت أخرى إلى أن يطمئن هوسه فى

حادثة مولده .

فاذا اطمأن إلى هذه الناحية تكلم على ذهاب بصره بقوله:

«أخبرنا أبو القاسم الحسين بن عبد الله بن رواحة الحموى ، قال: أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد الحافظ ، إجازة إن لم يكن سماعاً ، قال : سمعته — يعنى أبا محمد عبد الله بن الوليذ بن غريب الإيادى المعرى — يقول :

دخلت على أبي العلاء وأنا صبي مع عمى أبي طاهر نزوره ، فرأيته قاعداً على سجادة لبد ، وهو يسبح ، فدعا ومسح على رأسى وكأنى أنظر إليه الساعة وإلى عينيه وإحداهما بارزة والأخرى غائرة جداً ، وهو مجدّر الوجه نحيف الجسم . »

اشتغاله بالعلم وشيوخه

ثم يعقد ابن العديم فصلا عن اشتغاله بالعلم، وشيوخه الذين أخذ عنهم، فنفهم من هذا الفصل أنه قرأ القرآن العظيم بالروايات على شيوخ يشار إليهم فى القراآت ؛ وقرأ اللغة والنحو بمعرة النعمان على والده ، ودخل ، وهو صبى ، إلى حلب فقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوى راوية أبي الطيب المتنبى . يقول ابن العديم : « وقرأت بخط بعض أهل الأدب ، وأظنه محمد بن الخضر بن أبي مهزول المعروف بالسابق ، قال : وكان ابن سعد يروى فى ديوانه — يعنى ديوان المتنبى — فى قصيدته التى مطلعها :

أزائر ياخيال أم عائد

وذلك أنها لم تكن مما قرأه على المتنبى ، وهى مما أنفذه إليه :

أو موضعا فى فناء ناحية　　　تحمل فى التاج هامة العاقد

فرد عليه أبو العلاء وقد اجتمع معه بحلب وهو صبى .

أو موضعا في فتان ناجية

فلم يقبل ذلك ابن سعد ، ومضى إلى نسخة عراقية صعدت مع أبي على بن أريس من العراق فوجد القول ماقاله أبو العلاء .

ثم سافر إلى بغداد فى سنة تسع وتسعين للاستكثار من العلم، فأخذ بها عن أبى الحسن على بن عيسى الربعى ؛ وأبى أحمد عبد السلام ابن الحسين البصرى المعروف بالواجكا ، وأبى على بن الحسن بن حكيم السكرى النحوى اللغوى ، وذكر أبو البركات على بن أحمد بن محمد ابن أبى سعيد الأنبارى فى طبقات الأدباء له قال : وذكر أنه — يعنى أبا العلاء — لما قدم بغداد دخل على على بن عيسى الربعى ليقرأ عليه شيئا من النحو فقال له الربعى : ليصعد الإصطبل (١) فخرج من عنده مغضباً فلم يعد اليه .

ثم قال: وبلغنى أنه إنما دخل إلى بغداد لتعرض عليه الكتب التى فى خزائن بغداد ، لما وصف له من كثرتها ، ولم تكن رحلته لطلب دنيا .

وقد ذكر فى بعض كلامه وسنورده بتمامه : وأحلف ماسافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم، فشاهدت أنفس ما كان لم يدمف الزمن بإقامتى فيه.

ثم ذكر العلماء الثقات الذين أخذ عنهم الحديث ، وهم كثرة، ولكن الذى لفت نظرنا من جميع من ذكرهم ابن العديم اسم سيدة

(١) الاصطبل هو الاعمى بلغة أهل الشام على رواية ياقوت ، وفى شفاء الغليل الخفاجى أن اللفظة معربة

روى عنها الحديث ..

أتدرى من هذه المحدثة الفاضلة ؟ هى جدة أبي العلاء أم سلمى بنت الحسن بن إسحق بن بلبل، وقد أضاف هذا الاسم إلى طبقة المحدثين ليريذا أى بيت هذا الذى لمعت فى سمائه هذه الكوكب الساطعة والنجوم المشرقة .

ويختم ابن العديم هذا الفصل بقوله :

«وخرج من حديثه سبعة أجزاء رويت عنه ، وهى عندى بخط أبي الحسن على بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة ، رواها عن أحمد ابن على بن عبد اللطيف بن زريق المعرى عنه . »

تلاميذ أبي العلاء

وقد عقد ابن العديم بعد هذا الفصل فصلاً آخر .

حدثنا في الفصل الماضي عن أساتذته ، وكان لابد من أن يحدثنا في هذا الفصل عن تلامذته : من قرأ على أبي العلاء ، أو روى عنه ، فذكر طائفة من أئمة العلماء والأدباء والمحدّثين ، من أهل بلده ، من الشاميين ، من الحلبيين ، من الأندلسيين ، ومن أكثر البقاع الإسلامية وقد ملأت هذه الأسماء أكثر من صفحة واحدة . وهنا يقول ابن العديم : «فهؤلاء كلهم أئمة وقضاة وعلماء أثبات ، وأدباء رواة ، وحفاظ ثقات ، رووا عن أبي العلاء وكتبوا عنه ، وأخذوا العلم واستفادوا منه لم يذكره أحد منهم بطعن ، ولم ينسب حديثه إلى ضعف ولا وهن»

لقد كتب ابن العديم هذه الجملة بعد أن أورد مايقرب من مئة اسم من أكابر العلماء والقضاة والأئمة ممن عرفوا بالورع والزهد والتقى ، ليؤيد وجهة نظره فى الدفاع عن أبي العلاء ، وليبين أن مفتريات خصومه واهية لا أساس لها .

ثم يختم هذا الفصل بقوله :

«وكتب الينا أبو القاسم عيسى بن عبد العزيز من الإسكندرية أنه سمع أحمد بن محمد الأصبهانى الحافظ يقول : وأما هذان الإمامان - يعنى أبا زكريا التبريزى وأبا المكارم الأبهرى - فمن أجلاء من رأيتهم من أهل الأدب ، والمتبحرين فى علوم العرب ، وإلى أبى العلاء انتماؤهما ، وفى العربية اعتزاؤهما . وقد أقاما عنده برهة من الزمن للقراءة ، والأخذ عنه والاستفادة ، وقد أدركت سواهما جماعة من أصحابه الناقلين عنه بمكة والعراق والجبل والشام وديار مصر ، وأنشدونى عنه ما أنشدهم وحدثهم ، ومن جملتهم أبو إبراهيم الخليل ابن عبد الجبار القرائى . رأيته بقزوين ، وروى لى عنه حديثاً واحداً مسنداً يرويه عن أصحاب خيثمة بن سليمان القرشى الطرابلسى ، وأقام أبو زكريا التبريزى أكثر من سنتين يقرأ عليه »

وهكذا ، فقد كان يتصده العلماء من أقصى البلدان الإسلامية يأخذون عنه العلم والشعر والأدب ، وقد يتجاوزون ذلك إلى القصة والحديث والتصوف ، ثم يعودون وقد ملأوا الدنيا إعجابا بما رأوه من عبقرية هذا الفيلسوف الزاهد المتواضع الذى أوى إلى قريته بعيداً عن الناس . لا تستهويه هذه الضلالات التى تستهوى الكثيرين من البشر !..

ميوله الدينية

وإذ كان المعرى متهما فى عقيدته وعُرف بين العوام وأنصاف المتعلمين بالتعطيل والزندقة ، كان هم ابن العديم أن ينفى عنه هذه التهم الباطلة ، وأن يحيط أحياته بكل مايدفع عنه هذه الريب والشكوك. لقد حدثنا عن نشأته ، وعن جانب من طفولته وحداثته ، عن أساتذته ، عمن أخذ عنهم من الأئمة والقضاة ـ وكلهم قد عرف بالورع والتقى وبالزهد والتجرد ـ وكان لابد له بعد هذه التوطئة من أن يعقد فصلا عن ميوله الدينية ، ولكنه لم يحاول أن يبحث هذه الناحية لذاتها، بل لجأ إلى مايؤكد أن المعرى كان من أبعد العلماء عن هذه التهم التى لفقتها خصومه وحاسدوه .

ولقد أضاف ابن العديم إلى فصول كتابه فصلا ذكر فيه شيئاً مما وقع اليه من الأحاديث النبوية عن أبى العلاء مسنداً ، ورواة الأحاديث المسندة ممن اتصفوا بالتقى والورع ، فنقل عن أبى العلاء عدة أحاديث مسندة عن النبى ﷺ ليجلو هذه الناحية من حياته .

قال ابن العديم :

«أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبى المعالى بن البنا بدمشق ، وأبو سعد

ثابت بن مشرف بن أبي السعد البنا بحلب البغداديان ، قالا : أخبرنا أبو بكر محمد بن عبيد الله بن نصر الزاغوني ، حدثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن أبي الصقر الخطيب الأنباري من لفظه ، أخبرنا أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي بقراءتي عليه في داره بمعرة النعمان ، حدثني أبو زكريا يحيى بن مسعر التنوخي المعري ، حدثنا أبو عروبة بن أبي معشر الحراني ، حدثنا هوبر ، حدثنا مخلد بن عيسى الخياط ، عن أبي الزناد ، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه كان يقول :

إن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وإن الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، فالصلاة نور المؤمن ، والصيام جُنة من النار . »

وقد روى عدة أحاديث مسندة على هذا النسق ، ولعله أراد ، كما قلت ، أن يضيء بعض جوانب من حياته بهذه النواحي المشرقة من حياة العلماء ليرد من طريق غير مباشر على خصومه الذين جردوه من الإيمان ووضعوه في طليعة الملحدين المعطّلين .

كتاب أبي العلاء

وينتقل ابن العديم من هذا الفصل إلى فصل آخر ، خصه بكتّاب أبي العلاء الذين كانوا يكتبون له ما ينشئه من النثر والنظم والتصنيف والإملاء ، وقد لا يهم القارئ أن نعدد له جميع من ذكرهم ابن العديم فحسبنا أن نلمع إلى بعضهم ، فمنهم ابن أخيه الذي تقدم ذكره والذي كان براً بعمه أبي العلاء فمدحه بأكثر من قصيدة واحدة . وجعفر ابن صالح . وأبو الحسن على بن عبد الله الذي يقول ابن العديم عنه: إنه من العدول الأمناء الفضلاء ، وهو الذي لزم الشيخ أبا العلاء وكتب كتبه بأسرها : كتب من المصنف الواحد عدة نسخ ، وكان خطه مورقاً ، حسن الضبط والإتقان .

ثم قال :

«ووقفت على فصل في ذكره للشيخ أبي العلاء قال فيه : لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة . واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده إلا أن اضطر إلى غير ذلك ، فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبيد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته فألزمني بذلك حقوقاً جمة . وأيادي بيضاء ، لأنه أفنى في زمنه . ولم

يأخذ عما صنع ثمنه . والله يحسن له الجزاء . ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء »

ثم عدد غير واحد ممن كتب له ولازمه . وما زال حتى ختم هذا الفصل بهذه الفقرة :

« ومن كتابه جماعة من بنى أبى هاشم لا أتحقق أسماءهم ، فأننى وقفت على رسالة لأبى العلاء تعرف برسالة « الضبعين » كتبها إلى معز الدولة ثمال بن صالح يشكو اليه رجلين : أحدهما الشريف بن المحبرة الحلبي ، كانا يؤلبان الناس عليه . وينسبانه إلى الكفر والإلحاد ، وقد حرفا بيتاً من « لزوم مالا يلزم » عن موضعه ليثبتا عليه الكفر بذلك ، قال فيها : « وفى حلب ، حماها الله ، نُسخ من هذا الكتاب بخطوط قوم ثقات يعرفون ببنى أبى هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه ، وإن أحضرت ظهرت الحجة بما قلت فيه » .

وهكذا ، فلا يترك ابن العديم نبذة أو حادثة تبرئه من وشايات خصومه إلا أثبتها فى كتابه .

تصانيفه وتآليفه

وفى معجم الأدباء لياقوت فصل خاص عن أبى العلاء المعرى يحتل أكثر من مائة صفحة عرض فيه إلى بيته ونسبه وشعره ونثره ومعتقده وآراء خصومه فيه ، كما عرض الى كتبه ورسائله ، ومن يرجع الى هذا الفصل ويقارنه بما كتبه ابن العديم فى الفصل الذى أتى فيه « على ذكر تصانيفه ومجموعاته وتآليفه وأشعاره المدونة ورسائله المفننة » — يتراءى له أن النص واحد وإن اختلفا بعض الاختلاف . .

فمن من الأديبين اعتمد على الآخر فى كتابة هذا الفصل ؟

أحب أن أعتقد أن ياقوت بعد أن جمع كل ماقيل عن أبى العلاء سواء له أو عليه — اعتمد ابن العديم فى كتابة هذا الفصل لما اتصف به قاضى القضاة من البحث والتحقيق ، وكما اعتمده فى تاريخ بنى العديم لكتابه هذا ، فقد اعتمده فى هذا الفصل ، ولا نتردد أن نقول إن ياقوت قد اطلع على رسالة « الانصاف والتحرى » فأخذ منها ماراقه وترك ما لا يتلاءم ورأيه ، ورأى ياقوت فى أبى العلاء هو غير رأى ابن العديم . نعم ، لا نتردد أن نقول إن ياقوت اطلع

على رسالة ابن العديم ، وحجتنا أنه ألمع إلى الرسالة فى غير موضع واحد . .

يسرد ياقوت جميع كتب أبى العلاء ويصفها دون تعليق عليها أو يعلق عليها برأى خصومه ، على حين أن ابن العديم لا يترك فرصة دون أن يبرئه مما اتهم به ، ولا يتردد أن يرد على خصومه .

فعند ما أورد ياقوت ذكر كتاب « الفصول والغايات » مثلا وصف الكتاب بما يأتى :

« والمراد بالغايات القوافى ؛ لأن القافية غاية البيت ، أى منتهاه . وهو كتاب موضوع على حروف المعجم . ما خلا الألف لأن فواصله مبنية على أن يكون ماقبل الحرف المعتمد فيها ألفاً ؛ ومن المحال أن يجمع بين ألفين ؛ ولكن تجىء الهمزة وقبلها ألف ، مثل العطاء والكساء وكذلك الشراب والسراب فى الباء . ثم على هذا الترتيب ، ولم يعتمد فيه أن تكون الحروف التى يبنى عليها مستوية الإعراب ، بل تجىء مختلفة . وفى الكتاب قواف تجىء على نسق واحد ، وليست الملقبة بالغايات ، ومجيئها على حرف واحد . مثل أن يقال : عمامها ، وغلامها ، وغمامها ، وأمراً ، وتمراً ، وما أشبه . وفيه فنون كثيرة من هذا النوع . وقيل إنه بدأ بهذا الكتاب

قبل رحلته إلى بغداد وأتمه بعد عوده إلى معرة النعمان . وهو سبعة أجزاء ، مقداره مائة كراسة» .(١)

أما ابن العديم فمع إثباته بعض هذا الوصف . أضاف إلى ذلك قوله : . . وهو الكتاب الذى افترى عليه بسببه . وقيل إنه عارض به السور والآيات تعدياً عليه وظلماً ، وإفكا به أقدموا عليه وإثماً . فان الكتاب ليس من باب المعارضة فى شيء . ومقداره مائة كراسة»

وقل مثل ذلك فى كتاب «زجر النابح» الذى رد فيه أبو العلاء على من تحرش به لتأليفه ديوانه « لزوم مالا يلزم » فقد فسر ياقوت أسباب وضع كتاب « زجر النابح » بقوله :

« إن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم ما لا يلزم يريد بها التشرر والأذية ؛ فألزم أبا العلاء أصدقاؤه أن ينشىء هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره »(٢)

على حين أن ابن العديم لا يعمد إلى التلميح بل يصرح بطريقته فيقول: وله كتاب يتعلق بلزوم مالا يلزم أيضا سماه « زجر النابح » يرد فيه على من طعن عليه فى أبيات من هذا الكتاب ، ونسبه إلى

---

(١) معجم الادباء ج ٣ص ١٤٦ طبعة مصر

(٢) المصدر نفسه

الكفر فيها ، فبين وجوهها ومعانيها . وكتاب يتعلق بلزوم مالا يلزم أيضاً سماه « نجر الزجر » يعني أصل الزجر وضعه بعد هذا الكتاب الأول ، يرد فيه أيضاً على من طعن عليه في أبيات غير الأبيات المذكورة فى زجر النابح . وبعضها محرفة عن مواضعها . فبين التحريف ، وبين وجوه تلك الأبيات ومعانيها »

وقيمة ياقوت أنه جمع طائفة من الأقوال والنصوص ، سواء من كان مع أبي العلاء أو عليه ، بخلاف ابن العديم الذى كان يبرئ أبا العلاء من جميع ما اتهم به .

يقول ياقوت :

« والناس فى أبي العلاء مختلفون . فمنهم من يقول : إنه كان زنديقاً ، وينسبون إليه أشياء مما ذكرناها . ومنهم من يقول : كان زاهداً عابداً متقللا . يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة والقناعة باليسير . والإعراض عن أعراض الدنيا »(١)

فما هو رأى ياقوت ؟

إنه لا يتحرج أن يحكم عليه بسوء المعتقد حين يقول :

« وكان متهماً فى دينه . يرى رأى البراهمة(٢) . لا يرى إفساد

---

(١) معجم الأدباء ، ج ٣ ص ١٤٢ طبعة مصر

(٢) قوم من البراهمة لا يجوزون بعثة الرسل

الصورة ، ولا يأكل لحماً ، ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور . وعاش شيئاً وثمانين سنة ، لم يأكل اللحم منها خمسا وأربعين سنة وحُدِّثت أنه مرض مرة فوصف الطبيب له الفروج(١) . فلما جيء به لمسه بيده وقال : « استضعفوك فوصفوك ، هلاَّ وصفوا شبل الأسد! . وقد أوردنا من شعره ما يستدل به على سوء معتقده ، ويخبرك بنحلته ومستنده » (٢)

ولعل هذه الآراء الخاطئة هي التي حدت بابن العديم أن يكتب رسالته التي نحن بصددها . وكأن ياقوت لم يطمئن إلى حكمه على العلاء ، فما كاد يسترسل فى حديثه عنه حتى أخذ ينقض رأيه بنبذة لابن العديم ينقلها من كتابه «الإنصاف والتحرى» فيقول :

«قال — أى كمال الدين — : وقرأت بخط أبى المعرى فى ذكره وكان ، رضى الله عنه ، يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ، وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار ، يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه ، وإيثاراً لإتلاف نفسه ، فقال — رضى الله عنه — :

حاول إهوانى قوم فما واجهتهم إلا بإهوان

---

(١) الدجاج الصغير

(٢) معجم الأدباء الجزء الثالث ص ١٢٥ طبعة مصر

يخرشونى بسعاياتهم فغيروا نية أخوانى
لو استطاعوا لوشوا بي إلى الـ مريخ فى الشهب وكيوان

وقال أيضاً :

غريت بذمّى أمة وبحمد خالقها غريت
وعبدت ربى ما استطعت ومن بَرِيته بريت
وفرتنى الجهال حا سدة علىّ وما فريت
سعروا على فلم أحس وعندهم أنى هريت

وليس علينا بعد هذه التوطئة من أن نسرد أسماء كتب ورسائل أبى العلاء التى أوردها ابن العديم فى كتابه ؛ فهذا الفصل وإن طال لايخلو من فائدة .

***

قال ابن العديم :

فأول ما ألف بعد انقطاعه فى منزله ، بعد رجوعه من بغداد ، الكتاب المعروف :

١ ـ الفصول والغايات ، فى تمجيد الله تعالى والعظات . وهو موضوع على حروف المعجم . وأراد بالغايات : القوافى ؛ لأن القافية غاية البيت . وفيه قواف تجىء على نسق واحد ، وليست الملقبة

بالغايات . وهو الكتاب الذى افترى عيه بسببه . وقيل إنه عارض به السور والآيات تعدياً عليه وظلماً ، وإفكا به أقدموا عليه وإثماً . فان الكتاب ليس من باب المعارضة فى شىء . ومقداره مائة كراسة .

٢ ـ وكتاب السادن[1] وضعه فى ذكر غريب هذا الكتاب . وما فيه من اللغة ، ومقداره عشرون كراسة .

٣ ـ وكتاب إقليد الغايات[2] ، وهو مشتمل على تفسير اللغز ، ومقداره عشر كراريس .

٤ ـ ثم ألف الكتاب المعروف بالأيك والغصون ، وهو كتاب كبير ، ويعرف بكتاب الهمزة والردف ، بنى على إحدى عشرة حالة من الحالات ، الهمزة فى حال إفرادها وإضافتها ومثال ذلك : السماء بالرفع ، السماء بالنصب ، السماء بالخفض ، سماء : يتبع الهمزة التنوين ، سماؤه : مرفوع مضاف ....

وبعد هذه الاستطرادات التى تجدها فى معجم الأدباء يقول ابن العديم : ومقدار هذا الكتاب ألف ومائتا كراسة ، وهـــذا

---

(١) فى كشف الظنون : « السادر » ، وفى معجم الادباء : « الشاذن » وحققه أحمد تيمور باشا « السادن » وهذا ماروراه الذهبى أيضاً .

(٢) الاقليد المفتاح

الكتاب قليل الوجود لكبره ، ولم أقف إلاّ على جزء واحد منه ، وبعضه موقوف فى خزانة كتب النظامية ببغداد ، وبالديار المصرية منه نسخة كانت فى خزائن المصريين ، صارت الى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ، وانتقلت الى ولده القاضى الأشرف بعده ، ثم صارت فى جملة كتب إلى خزانة الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبى أيوب ، وأظنها فى ستين مجلدا .

٥ ــ وكتاب فى تفسير الهمزة والردف ، جزء واحد .

٦ــ والكتاب المعروف بتضمين الآى ، يتضمن العظات والحث على تقوى الله تعالى ، ألف هذا الكتاب لبعض الأمراء ، وقد سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، فعمل هذا الكتاب يعظه فيه ، ويحثه على تقوى الله ، وأتى فيه عند انقضاء كل فصل بآية من القرآن ، وربما اقتصر على بعض الآية ، أو جاء بآيتين وأكثر إذا كانت من ذوات القصر ، كآيات « عبس » ونحوها ، فمنه ماهو على حروف المعجم ، وقبل الحرف المعتمد ألف ، مثل أن يقال فى الهمزة : بناء ونساء وفى الباء : ثياب وعباب . وهكذا إلى آخر الحروف ، ويضمنه فى آخر الفصل بآية . ومنه فصول على فاعلين ، مثل : باسطين وقاسطين . وعلى فاعلون مثل حامدون وعابدون . ومنه ما على غير هذا الفن .

ومقدار هذا الكتاب أربعمائة كراسة .

٧ — والكتاب المعروف بتاج الحرة . وهو فى عظات النساء خاصة وتختلف فصوله ، فمنها ما يجىء بعد حرفه الذى يثبت ثبات الروى ياء التأنيث كقولك : شائى : وتشائى : وتسائى . وهابى : وترابى . ومنه ماهو مبنى على الكاف نحو غلامك وكلامك . ومنها ما يجىء على تفعلين مثل : ترغبين وتذهبين ونحو ذلك . وأنواعه كثيرة وهو كتاب لبعض الجليلات من النساء ، ويغلب على ظنى أنها طرود زوج ابن مرداس . ومقداره أربعمائة كراسة .

٨ — والكتاب المعروف بسيف الخطبة ، يشتمل على خطب السنة ، فيه خطب للجمع والعيدين والخسوف والكسوف ، والاستقاء وعقد النكاح ، وهو مؤلف على حروف المعجم ، فيها خطب عمادها الهمزة وخطب بنيت على الباء ، وخطب على التاء ، وعلى الدال ، وعلى الراء ، وعلى اللام والميم والنون ، وتركت الجيم والحاء وماجرى مجراها : لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سَجْسَجاً (١) سهلا ، ومقداره أربعون كراسة .

ثم قال : وظفرت له بجزء فيه خطب لختم القرآن العزيز ، فيه عدة

---

(١) السجسج والسهل بمعنى واحد

خطب لذلك ، مقداره خمس كراريس .

٩ ـ والكتاب المعروف بخطب الخيل يتكلم فيها على ألسنة الخيل ، ويذكر على لسان كل فرس خطبة يحمد الله تعالى فيها ويعظمه ويقول فى أول كل خطبة : إن الله قادر على أن ينطق فرساً صورته كذا وكذا فيقول : الحمد لله الذى خلقنى كذا وكذا . ومقداره عشر كراريس .

١٠ ـ والكتاب المعروف بخطبة الفصيح ، يذكر فيه الألفاظ التى تروى عن ثعلب فى كتاب الفصيح ضمن كلام فصيح منثور فى كل باب من أبواب الفصيح ، ومقداره خمس عشرة كراسة .

١١ ـ وكتاب شرح فيه ما جاء فى هذا الكتاب من الغريب يعرف بتفسير خطبة الفصيح . لا أعلم مقداره ، ولم أقف عليه .

ونفهم من هذه الفقرات أن ابن العديم قد وقف على أكثر كتب أبى العلاء ، وأن القسم الأعظم من كتبه المفقودة قد كانت موجودة فى عصر ابن العديم !

١٢ ـ وكتاب يعرف برسيل الراموز[١] مقداره ثلاثون كراسة

١٣ ـ ومن الكتب الصغار كتاب يعرف بخماسية الراح فى

---

(١) الراموز : البحر

ذم الخمر خاصة على حروف العجم ، ومعنى هذا الاسم أن كل حرف من حروف المعجم ماخلا الألف يذكر فيه خمس سجعات مضمومات وخمساً مفتوحات ، وخمساً مكسورات ، وخمساً موقوفات . مقداره عشر كراريس .

١٤ ــ وكتاب يعرف بالمواعظ الست ، سأله فيه بعض الوعاظ ، ومعنى هذا اللقب أن الفصل الأول منه فى خطاب رجل والثانى فى خطاب اثنين ، والثالث فى خطاب جماعة ، والرابع فى خطاب امرأة واحدة ، والخامس فى خطاب امرأتين ، والسادس خطاب نسوة. ومقداره خمس عشرة كراسة .

١٥و١٦ ــ وكتاب يعرف بوقفة الواعظ ، وكتاب يعرف بدعاء ساعة ، وهما مختصران ، ولا أعلم مقدار حجمهما .

١٧ ــ وكتاب دعاء الأيام السبعة ، لاأعلم مقداره .

١٨ ــ وكتاب «حرز الخيل» لا أعلم مقداره .

١٩ ــ وجزء فيه حرز وتعويذ ، لا أعلم مقداره .

٢٠ ــ وكتاب يعرف بسجع الحمائم ، تكلم فيه على ألسن حمائم أربع ، وكان بعض الرؤساء سأله أن يصنف له تصنيفاً يذكره فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل مايقوله على لسان الحمامة فى العظة والحث

على الزهد ، ومقداره ثلاثون كراسة .

٢١ ـ وكتاب يعرف بعظات السور ، يتكلم فيه على لسان سور القرآن ؛ وتتظلم كل سورة ممن قرأها بالشواذ ، ويتعرض للوجه الشاذ ، مقداره ست كراريس .

٢٢ ـ وكتاب يعرف بالجلى والجلى[1] ، سأله فيه رجل من أكابر الحلبيين يقال له أبو الفتح عبد الله بن إسماعيل بن الجلى ؛ وهو رجل فاضل من أكابر الحلبيين وأعيانهم ؛ وأرباب النعمة منهم ، له مصنفات ورواية للأحاديث النبوية ؛ سمع منه الخطيب أبو بكر أحمد بن على بن ثابت البغدادى وأبو الحسن على بن عبد الله بن أبى جرادة الحلبى وغيرهما ، مقدار هذا الكتاب عشرون كراسة .

٢٣ ـ وكتاب يعرف «الصاهل والشاحج» يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ، وهو كتاب حسن ، صنفه للأمير عزيز الدولة أبى شجاع فاتك بن عبد الله الرومى ، مولى منجوتكين العزيزى . وكان أبو شجاع هذا والى حلب من قبل المصريين فى أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر . وكان سبب تصنيفه أنه رفع إلى فاتك أن حقًّا يجب له

---

(١) اسم هذا الكتاب مختلف فيه .

على بعض أقرباء أبي العلاء وجب على أبي العلاء سؤاله فيه . مقداره أربعون كراسة .

٢٤ – وكتاب لطيف في تفسير «الصاهل والشاحج» يعرف بلسان الصاهل والشاحج . عمله أيضا لعزيز الدولة المذكور، ومقداره ثماني عشرة كراسة . وبعض الجهال يقول إنه عمله لأبي الدوام ثابت ابن محمود بن نصر بن صالح . وكان يلقب عزيز الدولة وهو غير صحيح . بل الذى عمله لأبي الدوام «اللامع العزيزى» وسيأتى ذكره

٢٥ – والكتاب المعروف بالقائف . يذكر فيه أمثالا على معنى «كليلة ودمنة» عمله لعزيز الدولة أبي شجاع المذكور أيضا . ألف منه أربعة أجزاء ، ثم قطع تأليفه لموت الذى أمر بإنشائه . وهو أبو شجاع فاتك . فإنه قتل بالمركز بقلعة حلب ، قتله مملوك له هندى يقال له توذون سنة ثلاث عشرة وأربعمائة . ومقداره ستون كراسة.

٢٦ – وكتاب يعرف بشرف السيف . عمله لأمير الجيوش نوشتكين الدزبرى والى دمشق وحلب . وكان بلغه عنه كلام جميل ويوجه اليه بالسلام ، ويحفى المسئلة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل .

٢٧ — وكتاب يعرف بالسجع السلطانى. يشتمل على مخاطبات الجنود والوزراء والولاة وغيرهم ، عمله لبعض الكتاب القليلى الصناعة

ليستعين به على الكتابة . مقداره ثمانون كراسة .

٢٨ — وكتاب يعرف بسجع الفقيه مقداره ثلاثون كراسة .

٢٩ — وكتاب يعرف بسجع المضطرين ، وهو كتاب لطيف عمله لرجل مسافر يستعين به على شؤون دنياه . لا أعلم مقداره .

٣٠ — وكتاب «ديوان الرسائل» وهو ثلاثة أقسام . منها طوال كرسالة الملائكة ورسالة الغفران : كتبها إلى على بن منصور الحبى المعروف بدوخلة ، جوابا على رسالة كتبها اليه يعتب عليه فى أنه بلغه عنه أنه ذكره فقال : هو الذى هجا أبا القاسم ابن المغربى . فكتب اليه رسالة الغفران جواباً عنها . والرسالة السندية كتبها إلى سند الدولة بن ثعبان الكتابى والى حلب من قبل المصريين فى معنى خراج على ملكه بمعرة النعمان . ورسالة العرض ونحو ذلك .

والثانى هو دون هذه فى الطول ، مثل رسالة المنيح ورسالة الإغريض ، والثالث رسائل قصار كنحو ما يجرى به العالم فى المكاتبات ، ومقداره ثمانمائة كراسة .

٣١ — وكتاب يعرف بخادم الرسائل . فيه تفسير بعض ما جاء فى رسائله هذه من الغريب ، لا أعلم مقداره .

٣٢ — وكتاب تفسير رسالة الغفران ، لا أعلم مقداره .

٣٣ — وكتاب تفسير رسالة الإغريض وهى التى كتبها إلى أبى القاسم الحسين بن على المغربى ، وقد سير اليه كتابه الذى اختصر فيه إصلاح المنطق ، فكتب اليه برسالة الأغريض يقرظه ويصف اختصاره للاصلاح ، ومقداره خمس كراريس .

٣٤ — وكتاب يعرف برسائل المعونة ، وهى ما كتب على ألسن قوم . لا أعلم مقداره .

٣٥ — والرسالة المعروفة بالحصنية (١) لا أعلم مقدارها.

٣٦ — ورسالة عملها على لسان ملك الموت عليه السلام ، لا أعلم مقدارها.

٣٧ — وكتاب لطيف يعرف بالسجعات العشر ، موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات فى الوعظ ، لا أعلم مقداره .

٣٨ — ومن الأشعار التى نظمها : ديوانه المعروف «بسقط الزند» (٢) وهو ماقاله فى أيام الصبا فى أول عمره ، وهو من

---

(١) فى معجم الادباء الرسالة الخصبة

(٢) قال التبريزى : لما حضرت أبا العلاء ، قرأت عليه كثيراً من كتب اللغة وشيئا من تصانيفه ، فرأيته يكره أن يقرأ عليه شعره فى صباه ، الملقب بسقط الزند ، وكان يغير الكلمة بعد الكلمة منه ، إذا قرأت عليه ، ويقول معتذراً عن تأبيه وامتناعه من سماع هذا الديوان : مدحت نفسى فيه فلا أشتهى أن أسمعه ، وكان يحثنى على الاشتغال بغيره من كتبه

أحسن أشعاره ، وقد اعتنى به العلماء وشرحوه ، مقداره خمس عشرة كراسة ، تزيد أبياته المنظومة على ثلاثة آلاف بيت ، شرحه الخطيب التبريزى وشرحه ابن السيد البطليوسى وأحسن شرحه .

٣٩ ــ وكتاب يعرف بضوء السقط ، يشتمل على تفسير ما جاء فى سقط الزند من الغريب ، مقداره عشرون كراسة ، وضع هذا الكتاب لتلميذه أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهانى ، وكان رجلا فاضلا قصده إلى معرة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه بعد أن استغنى من ذلك ثم أجابه فقرأ عليه الكتب الى أن مات ، وقد أشار إلى ذلك فى مقدمة ضوء السقط ، وأقام أبو عبد الله الأصبهانى بحلب ، وروى عن أبى العلاء كتباً متعددة من تصانيفه وهو الذى سأله أبو العلاء أن يشرح له سقط الزند . فشرحه ، ووسمه بضوء السقط ، وقد روى أبو عبد الله عنه وعن أبى صالح محمد بن المهذب المغربى وكان من الأعيان العلماء . روى عنه أبو الحسن على ابن عبد الله بن أبى جرادة والشريف الزاهد سعيد بن عبد الله بن محاسن الهاشمى وأبو الفرج عبد القاهر النحوى المعروف بالوأواء وأبو المجد عبد الرحمن بن الخضر ، الحلبيون . وتوفى سنة ست وتسعين وأربعمائة . وقد أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن الحسن الدمشقى

بها عن أبى عبد الله محمد بن حمزة بن أبى الصقر ، قال :

أنشدنى الشريف الزاهد سعيد بن عبد الله بن محاسن الهاشمى أبو منصور بحلب ، قال :

أنشدنى أبو عبد الله محمد الأصبهانى قال : أنشدنى أبو العلاء يعنى يخاطبه :

يا أصبهانى وما غيره ماذا ترجى من دخول الىّ
لامال عندى ترتجى نفعه اذهب حميداً وتفضل علىّ

٤٠ ـ وكتاب يعرف بلزوم مالا يلزم وهو فى المنظوم ، بنى على حروف المعجم ، ويذكر فيه كل حرف سوى الألف بوجوهه الأربعة : وهى الضم والفتح والكسر والوقف منظوماً ، ومعنى لزوم مالا يلزم أن القافية يردد فيها حرف لو غير لم يكن مخلا بالنظم، ثم أورد عدة شواهد على ذلك . ومقدار هذا الكتاب أربعة أجزاء ، مائة وعشرون كراسة .

٤١ ـ وكتاب يتعلق بهذا الكتاب يقال له « زجر النابح » وقد ألمعنا إليه .

٤٢ ـ وكتاب يتعلق بلزوم مالا يلزم أيضا سماه « نجر الزجر » وقد ألمعنا اليه أيضا .

٤٣ ـ وكتاب يعرف براحة اللزوم ، شرح فيه ما فى كتاب « لزوم مالا يلزم » من الغريب ، ومقداره مائة كراسة .

وقد تضمنت هذه الكتب ردوداً صريحة من أبى العلاء على خصومه الذين اتهموه بالكفر ، ولم يتورعوا عن تحريف كلامه .

٤٤ ـ وكتاب يعرف بجامع الأوزان فيه شعر منظوم على معنى اللغز ، يعم به الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب من ذلك . ثم أورد عدة أمثلة على ذلك . يقول ابن العديم : إن مقدار هذا الكتاب ستون كراسة وعدد أبياته نحو من تسعة آلاف .

٤٥ ـ كتاب « استغفر واستغفرى » فى العظة والزهد والاستغفار ، أول كل أبيات فيه : استغفر الله ، ومقداره مائة وعشرون كراسة ، يشتمل على نحو من عشرة آلاف بيت .

٤٦ ـ وكتاب « ملقى السبيل » وهو كتاب وعظ يشتمل على نثر ونظم على حروف المعجم ، على كل قافية فصل نثر وأبيات شعر ، مقداره كراستان .

٤٧ ـ وما عمله فى النحو والغريب ككتاب « الحقير النافع »

وهو مختصر فى النحو، مقداره خمس كراريس .

٤٨ ـ وكتاب يتصل بالحقير النافع يعرف بالظل الطاهرى ؛ عمله لرجل من أهل حلب يكنى أبا طاهر ؛ وهو أبو طاهر المسلم بن على ابن تغلب الملقب مؤتمن الدولة ، وكان من أكابر الحلبيين وعلمائهم، وكان وجيهاً عند معز الدولة ثمال بن صالح ، وسيره رسولا إلى مصر الى المستنصر سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، فمات بها وأودع تركته عند المؤيد فى الدين ليوصلها الى ورثته ، وهذا الذى عناه أبو محمد الخفاجى بقوله فى قصيدته الرائية :

إن فى جانب المقطم مهجو   راً ومن أجله تزار القبور

وبعد أن أورد مقطوعة من مرثاة ثانيـــة لأبى محمد الخفاجى قال :

وهذا الكتاب قريب من الأول في الحجم ، وقد يخلط بالكتاب الأول ويجعل كتابا واحدا .

٤٩ ـ وكتاب يعرف بالمختصر الفتحى ، يتصل بمختصر محمد بن سعدان ، عمله لولد كاتبه أبى الفتح محمد ابن الشيخ أبى الحسن على بن أبى هاشم .

٥٠ ـ وكتاب يعرف بعون الجمل، عمله لأبى الفتح محمد بن على

ابن أبي هاشم، شرح فيه شيئاً من كتاب الجمل لا أعلم مقدارها . وهو آخر كتاب أملاه وكان أبوه يتولى إثبات ما ألفه من هذه الكتب فألزمه حقوقاً جمة وأيادى بيضا فوضع هذين الكتابين لابنه .

٥١ ـ وكتاب يعرف بتعليق الحُلَس ، مما يتصل بكتاب أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي المعروف بالجمل . لا أعلم مقداره .

٥٢ ـ وكتاب يتعلق بهذا الكتاب أيضاً . يعرف بإسعاف الصديق . لا أعلم مقداره .

٥٣ ـ وكتاب يتعلق بالكافى الذى الفه أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، لقبه: قاضى الحق ، لا أعلم مقداره .

٥٤ ـ وإملاء فى النحو يتصل بالكتاب المعروف بالعضدى ، لقبه : ظهير العضدى ، لا أعلم مقداره .

٥٥ ـ وكتاب شرح فيه كتاب سيبويه ، لم يتمه ، مقداره خمسون كراسة .

٥٦ ـ وكتاب تفسير أمثلة سيبويه وغريبها، عرّيت من الكتاب، لا أعلم مقداره وهو فى مجلد .

٥٧ ـ وكتاب شرح فيه خطبة أدب الكاتب ، عمله لأبى الرضى

سالم بن الحسن بن على الحلبي ، وهو ابن اخت الوزير أبى نصر محمد ابن النحاس الحلبي ، وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء ، لا أعلم مقداره .

٥٨ ـ وكتاب فى العروض ، يعرف بثقال النظم . لا أعرف مقداره . وهو فى مجلد

٥٩ ـ وكتاب فى القوافى . مجلد

٦٠ ـ وكتاب اللامع العزيزى فى تفسير شعر المتنبى . ويقال الثابتىّ العزيزى . عمله للأمير عزيز الدولة أبى الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس بن إدريس بن نصر بن حميد الكلابى . وبعض الناس يغلط ويقول إنه وضعه لعزيز الدولة أبى شجاع فاتك العزيزى . وليس الأمر كذلك . ومقداره مائة وعشرون كراسة .

٦١ ـ وكتاب فى معانى شعر المتنبى . مقداره ست كراريس .

٦٢ ـ وكتاب يعرف بذكرى حبيب . فى تفسير شعر أبى تمام حبيب بن أوس الطائى . مقداره ستون كراسة .

٦٤ ـ وكتاب يتعلق بشعر أبى عبادة البحترى يعرف بعبث الوليد . وكان سبب وضعه أن بعض الرؤساء ، وهو أبو اليمن المسلم ابن الحسن بن غياث الكاتب الحلبى النصرانى ، وكان صاحب

الديوان بحلب ـ أنفذ اليه نسخة من شعر أبي عبادة البحتري ليقابل له بها فأثبت ماجرى من الغلط ليعرض ذلك عليه . وبعض الغلط من الناسخ ، وبعضه من البحتري . ومقداره عشرون كراسة .

٦٤ ـ وكتاب يعرف بالرياشي المصطنعي. في شرح مواضع من الحماسة الرياشية ، عمله لرجل من الأمراء يلقب مصطنع الدولة . وهو أبو غالب كايب بن علي ، فسر فيه ما لم يفسره أبو رياش. وكان قد أنفذ اليه نسخة من الحماسة ، وسأله أن يخرج في حواشيها مالم يفسره أبو رياش . فجعله كتابا مفرداً لخوفه من أن تضيق الحواشي عنه . مقداره أربعون كراسة .

٦٥ ـ وكتاب جمع فيه فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، لا أعلم مقداره .

٦٦ ـ وكتاب فيه أمالي من حديث رسول الله ﷺ عن شيوخه . وهي سبعة أجزاء . سبع كراريس .

٦٧ ـ ومن الأمالي التي لم تتم . ولم يفرد لها اسماً ، ما مقداره مائة كراسة ، منها: تفسير شواهد الجمهرة .

وجمع شعر أخيه أبي الهيثم عبد الواحد لولده زيد . وجمع شعر

الأمير أبي الفتح بن أبي حصينة السلمى . وشرح مواضع منه فى ثلاث مجلدات .

فذلك جميعه سبع وستون مصنفا .

***

انتهى ماذكره ابن العديم من كتب أبي العلاء ، ويخيّل إلى أن القارئ قد مل من تلاوة هذا الثبت الطويل ، ولا أنكر ، فقد مللت أنا أيضا فى نقله ، ولكن أين هذا مما يجب أن يتحلى به محبو العلم من الصبر والجلد ؟

لقد أمضى أبو العلاء خمسين سنة من عمره وهو يملى هذا الحشد من الرسائل والكتب فى شتى صنوف العلم والأدب يعالج فيها مشكلات الحياة والمجتمع . أفلا نقف لحظات قد لا تتجاوز الدقائق الخمس فى تلاوة عناوين هذه الثروة الضخمة التى تركها أبو العلاء على ما فيها من فوائد لمن يريد أن يعرف كل شاردة عن حياة هذا الفيلسوف العربي الفذ ؟

وعلى كل ، فنحن لم نورد هذا الثبت الطويل إلا لهذه الاستطرادات التى أوردها ابن العديم عن الكثير من الكتب مما لانجده عند ياقوت ، وقد عرفنا من هذا الفصل أن المؤرخ كمال الدين

قد قرأ أكثر كتبه ، وأنه لم ينبر للدفاع عن أبى العلاء إلا بعد أن تحقق له مدى عمله وإيمانه وصحة معتقده ، وأن خصومه لم يرموه بسوء المعتقد إلا لحسد تأكل ناره صدورهم . وهذا الذى جعله يسىء الظن بالبشر ويتمنى لو أن الإنسان لم يوجد لتنجو البشرية من فساده وشروره وخسه طبعه ، فقال :

يا ليت آدم كان طلق أمهم أو كان حرمها عليه ظهار

ولدتهم فى غير طهر عاركا فلذاك تفقد فيهم الأطهار

سفره إلى بغداد

بعد هذا الفصل الطويل الذى عقده عن مؤلفاته ، عقد فصلا ذكر فيه رحلته إلى بغداد وعودته إلى معرة النعمان ، وانقطاعه فى منزله عن الناس وتسمية نفسه رهين المحبسين ، وهو فصل توسع فيه وقص بعض قصص طريفة من حياة أبى العلاء .

قال ابن العديم :

رحل إلى بغداد لطلب العلم ، والاستكثار منه ، والاطلاع على الكتب ببغداد ، ولم يرحل لطلب دنيا ولا رفد . وقد ذكر ذلك فى قصيدته التى قرأتها على شيخنا أبى على الحسن بن عمرو الموصلى بحلب . قال : أنشدنا الخطيب أبو الفضل عبد الله بن أحمد الموصلى قال : أخبرنا الخطيب أبو زكريا يحيى بن على التبريزى إجازة ، قال : أنشدنا أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان لنفسه وكتبها من بغداد إلى أهله ، يريد بالمعرة :

أإخواننا بين الفرات وجلّق ... يد الله لا خبرتكم بمحال
أنبئكم أنى على العهد سالم ... ووجهى لما يبتذل بسؤال
وأنى تيممت العراق لغير ما ... تيممه غيلان عند بلال

فأصبحت محسوداً بفضلي وحده   على بعد أنصارى وقلة مالى

وغيلان هو ذو الرمة قصد بلال بن أبي بردة بن أبي موسى ، يريد أنه لم يستجد أحدا.

وكان ترك والدته بمعرة النعمان ؛ ولما عاد إلى المعرة وجدها قد ماتت.

* * *

أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن على، عن أبي جعفر محمد ابن مؤيد بن حوارى ؛ أخبرنى جدى أبو القيظان قال :

ولزم — يعنى أبا العلاء — منزله عند منصرفه من بغداد ، منذ سنة أربعمائة ؛ وسمى نفسه «رهن المحبسين» للزومه منزله وذهاب عينيه .

* * *

وقرأت بخط أبي محمد الحسن بن الفرج البحترى الأديب فى آخر سقط الزند بروايته عن الخطيب التبريزى ، وخط التبريزى عليه : ورحل — يعنى أبا العلاء — إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ، ودخلها سنة تسع وتسعين ؛ وأقام بها سنة وستة أشهر ، ولزم منزله عند منصرفه من بغداد منذ سنة أربعمائة . وسمى نفسه « رهن المحبسين » لهذا ، ولذهاب عينيه .

* * *

أنبأنا أبو عبد الله محمد بن محمود النجار . قال كتب الينا الوزير أبو غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين ، قال : ورحل إلى بغداد فى سنة ثمان وتسعين فدخلها فى سنة تسع وتسعين وأقام بها سنة ونصفاً ، ثم عاد إلى المعرة فى سنة أربعمائة ولزم منزله بها ، وأمسك عن أكل اللحم خمساً وأربعين سنة .

* * *

سمعت والدى أبا الحسن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة فيما يأثره عن أسلافه قال : رحل أبو العلاء المعرى من المعرة إلى بغداد واتفق يوم وصوله اليها موت الشريف الطاهر . يعنى أبا أحمد الحسين بن .. بن الخ وهو والد الشريفين الرضى والمرتضى . فدخل أبو العلاء لتعزيته ، والناس مجتمعون ، والمجلس غاصّ بأهله . فتخطى بعض الناس ، فقال له بعضهم ولم يعرفه : إلى أين يا كلب ؟ فقال : الكلب من لا يعرف للكلب كذا وكذا اسماً (١) .

ثم جلس في أخريات المجلس ، إلى أن قام الشعراء وأنشدوا . فقام أبو العلاء وأنشد قصيدته الفائية التى أولها :

---

(١) يورد ياقوت هذه القصة ثم يختم العبارة بهذا النص : قال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

أودى فليت الحادثات كفاف

مال المسيف وعنبر المستاف

يرثى بها الشريف المذكور . فلما سمعه الرضى والمرتضى قاما إليه ، ورفعا مجلسه . وقالا له : لعلك أبو العلاء المعرى . قال : نعم . فأكرماه واحترماه ، ثم إنه بعد ذلك طلب أن تعرض عليه الكتب التى فى خزائن بغداد فأدخل اليها . وجعل لا يقرأ عليه كتاب إلا احفظ جميع ما يقرأ عليه .

* * *

سيّر إلىّ قاضى المعرة شهاب الدين أبو المعالى أحمد بن مدرك ابن سليمان جزءاً فيه أخبار سلفه من بنى سليمان ، وكتبه لى بخطه قال : وهنا قص قصة طويلة عن تاريخ سفره ومن لقى فى بغداد من العلماء ثم أورد قصيدة من أخيه أبى الهيثم يستعطفه على مخلفيه بالشام ويسأله العودة يقول فى مطلعها :

يارب قد جنح الوميض وغارا

فاسق المواطر زينباً ونوارا

أختين صاغهما الشباب وعصره

ماء يصفقه النعيم ونارا

وهى طويلة يختمها بقوله :

أأبا العلاء نداء عبد أدركت
منه النوى لما نأت بك ثارا
حاشاك أن تبدى الجفاء لخلة
وتعيد أقران الوفاء قصارا
أدرك بإدراك المعرة مهجة
تفنى عليك مخافة وحذارا
أغرت نواك بها الحمام مناجزا
ونجا بها حسن الرجاء مرارا
بلغت بك الهمم المراد فأيأست
منك الحسود ولم تنط بك عارا
فأقمت فى الزوراء ، ثم غدوت فى
أفق المفاخر كوكبا سيارا

بدء عزلته واشتغاله باللغة

قال ابن العديم :

ولما قدم من بغداد ، عزم على العزلة ، والانقضاب من العالم فكتب إلى أهل المعرة :

«بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب الى السكن المقيم بالمعرة ، شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبدالله بن سليمان ، خص به من عرفه وداناه ، سلم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولم شعثها ولا آلمها . أما الآن فهذه مناجاتى بعد منصرفى عن العراق : مجتمع أهل الجدل ، وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت ، وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره ، وجربت خيره وشره ، فوجدت أوفق ماأصنعه فى أيام الحياة ، عزلة تجعلنى من الناس كبارح الأروى من سانح النعام . وما ألوت نصيحة لنفسى ، ولا قصرت فى اجتذاب المنفعة إلى حيزى ، فأجمعت على ذلك ، واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزما وعدّه إذا تم رشدا . وهو أمر أسرى عليه بليل قضى برقة ، وخبت به النعامة ، ليس بنتيج الساعة ، ولاربيب الشهر والسنة ، ولكنه غذى الحقب

المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل . وبادرت إعلامهم ذلك مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض الى المنزل الجارية عادتى بسكناه ، ليلقانى فيه ، فيتعذر ذلك عليه ، فأكون قد جمعت بين سمجين : سوء الأدب وسوء القطيعة ، ورب ملوم لاذنب له ، والمثل السائر : «خل امرءاً وما اختار » وما سمحت القرون بالإياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة :

١ ــ نبذة كنبذة فتيق النجوم .

٢ ــ وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة من القوب .

٣ ــ وثباتا فى البلد إن جلا أهله من خوف الروم .

فان أبى من يشفق على ، أو يظهر الشفق ، إلا النفرة مع الدواد كانت نفرة الأعفر أو الأدماء .

وأحلف ماسافرت أستكثر من النشب . ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقامتى فيه . والجاهل مغالب القدر . فلهيت عما استأثر به الزمان . والله يجعلهم أحلاس الاوطان ، لا أحلاس الخيل والركاب ، ويسبغ عليهم النعمة سبوغ القمراء الطلقة على الظبى الغرير ، ويحسن جزاء البغداديين ، فقد وصفونى بما لا أستحقه ، وشهدوا لى

بالفضيلة على غير علم . وعرضوا على أموالهم عرض الجد ؛ فصادفونى غير جذل بالصنيعات ، ولاهش إلى معروف الأقوام ؛ ورحلت وهم لرحيلى كارهون . وحسبى الله وعليه يتوكل المتوكلون »

***

قال ابن العديم :

وإنما قيل له « رهن المحبسين » للزومه منزله وكف بصره فأقام مدة طويلة فى منزله مختفياً لا يدخل عليه أحد . ثم إن الناس تسببوا اليه حتى دخلوا عليه . فكتب الشيخ أبو صالح محمد بن المهذب الى أخيه أبى الهيثم قصيدة طويلة يمدح فيها أبا العلاء ويذكر فضله وما تركه من أثر فى بغداد وفى قلوب محبيه . ومما قاله :

أبا الهيثم اسمع ما أقول فانما تعين على ما رمت خير معان
قريضى هجاء إن حرمت مديحه لأروع وضاح الجبين هجان
أطل على بغداد كالغيث جاءها به سعد نجم في أجل أوان
نضاها ثياب المجد وهى لباسها وبدلها من شدة بليان
فياطيب بغداد وقد أرجت به على بعدها الأطراف من أرجان

ومنها :

فكن حاملا منى اليه رسالة تبين اليه فى هضاب أبان

فان قال أخشى من فلان تشبهاً　　فقل ما فلان عندنا كفلان

وقائل هذا الشعر من أكابر رجالات المعرة كان كما يقول المؤرخون : كبير القدر ، جليل الأمر ، فاضلا عالماً زاهداً شاعراً ، حدث بالكثير عن أبى العلاء المعرى .

* * *

وهكذا فلا يترك ابن العديم فرصة تمر إلا ويورد لنا بطريق غير مباشر ، بعض النصوص التى ترينا من هم الذين أحبوا أباالعلاء من معاصريه . وكأنه يرد على خصومه بقوله :

أيتقدم إلى مدحه العلماء والزهاد ، إذا كان ينطوى قلبه على الكفر والإلحاد ؟

ألا ساء ما تعتقدون . . . !

ذكاؤه وحفظه

بعد أن استوفى ابن العديم الكلام عن رحلة المعرى إلى بغداد وعودته الى معرة النعمان وانقطاعه فى منزله عن الناس ، عقد فصلا عن ذكائه وفطنته وسرعة حفظه وألمعيته وتوقد خاطره وبصيرته . ونحن نورد هذا الفصل على ما فيه من غرائب ، هى أقرب لأن ترضى أهواء العوام من أن ترضى أفهام الخواص . على أن هذا لا يجرد أبا العلاء من توقد الذهن وسرعة الفهم .

قال ابن العديم :

« أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن على القرطبى ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن مؤيد بن حوارى كتابة ، قال : أخبرنى جدى أبو اليقظان قال: كان مولد الشيخ أبى العلاء بن سليمان بمعرة النعمان وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتى عشرة سنة رحمه الله .

وقرأت بخط أبى محمد الحسن القاسم البحترى فى آخر سقط الزند ، وقد قرأه على التبريزى وعليه خطه ، وذكر أبا العلاء فقال : وقال الشعر وهو إبن احدى عشرة سنة أو اثنتى عشرة سنة .

وسمعت والدى يقول : فيما يؤثره عن أسلافه : كان أبو العلاء

على غاية من الذكاء والحفظ . وقيل له : بم بلغت هذه الرتبة فى العلم ؟ فقال : ماسمعت شيئا إلا حفظته ، وما حفظت شيئا فنسيته . »

***

ثم روى ابن العديم أكثر من قصة واحدة مما ترويه كتب الأدب عن توقد ذهنه وسرعة ذاكرته مما يدخل فى باب التهويل أكثر مما يقره العقل والمنطق ، كقصة تلميذه أبى زكريا التبريزى مع مواطنه اللذين تحدثا بالفارسية ، فأعاد أبو العلاء الكلام دون أن يفهم المعنى ؛ وقصة التاجرين اللذين أضاع أحدهما ورقة الحساب فاستطاع أبو العلاء ، بعد عدة أيام ، أن يسرد هذه الأرقام دون زيادة أو نقص ! وقد روى ابن العديم هاتين القصتين وروى غيرهما مماثلتين لهما ؛ ولا بأس أن نسمع اليه يقص بعض القصص التى لم ترد فى الكتب التى عرضت إلى سيرة أبى العلاء .

* * *

قال ابن العديم :

وأخبرنى قاضى معرة النعمان شهاب الدين أبو المعالى أحمد بن مدرك بن سليمان فيما تأثره عن المعربين أن الشيخ أبا العلاء لما دخل بغداد لم يعرض عليه شىء من الكتب إلا وحفظها ، وأخبرهم أنه

يحفظ كل شيء سمعه . وطلبوا كتاباً لا يعرفه ليمتحنوه به فأحضروا دستور الخراج الذى فى الديوان ، وجعلوا يوردون ذلك عليه مياومة وهو يسمع الى أن فرغو من ذلك ، فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه عليه .

« • »

وقفت على سيرة بعض الرؤساء بحلب ، وضعها الشريف أبو على المظفر بن الفضل بن يحيى العلوى الإسحاقى الحسينى نزيل بغداد ، وهو من ولد الشريف أبى إبراهيم العلوى الحرانى وأصله من حلب وكان أبوه حاجب الباب ببغداد ، ورد هذا الشريف علينا ـ فى حلب ـ زائراً أهله بها ، فذكر فيه ، قال : حدثنى والدى رضى الله عنه وأرضاه ، يرفعه إلى ابن منقذ قال : كان بأنطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بها رجلا علويا ، فجلست يوما اليه . فقال . قد خبأت لك خبيئة طريفة لم يسمع بمثلها فى تاريخ ، ولا كتاب منسوخ . قلت : وما هى ؟ قال ، صبى دون البلوغ ، ضرير ، يتردد إلى وقد حفظته فى أيام قلائل عدة كتب ، وذلك لأننى قرأت عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فلا يستعيد إلا ما يشك فيه ، ثم يتلو علىّ ما قد سمعه كأنه قد كان محفوظه ، قلت : لعله يكون يحفظ ذلك . قال : سبحان الله !

كل كتاب فى الدنيا محفوظ له ، وإن كان ذلك كذلك فهو أعظم!

ثم حضر المشار اليه وهو صبى ، دميم الخلقة ، مجدور الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدرى، كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا وهو يتوقد ذكاء، يقوده رجل طوال من الرجال ، أحسبه يقرب من نسبه، فقال له الخازن : ياولدى هذا رجل شريف القدر ، وقد وضعتك عنه (١) وهو يحب اليوم أن تحفظ مايختاره لك فقال : سمعاً وطاعة ، فليختر مايريد . قال ابن منقذ : فاخترت شيئاً ، وقرأته على الصبى ، وهو يموج ويستزيد ، فاذا مر به شىء يحتاج إلى تقريره فى خاطره يقول : أعد هذا ، فأورده عليه مرة واحدة حتى انتهيت إلى مايزيد على كراسة، ثم قلت له : يقنع هذا من قبل نفسى. قال : أجل حرسك الله، قلت كذا وكذا ، وتلا على ما أمليته عليه وأنا أعارضه بالكتاب حرفاً حرفاً حتى انتهى إلى حيث وقفت عليه ، فكاد عقلى يذهب لما رأيت منه، وعلمت أن ليس فى العالم من يقدر على ذلك ، إلا أن يشاء الله ، وسألت : فقيل لى : هذا أبو العلاء التنوخى من بيت العلم والقضاء والثروة والغناء .

* * *

(١) هكذا فى الاصل ، ولعله: وصفتك له

وهذه القصة تريننا لوناً من الملكات الواعية التى تحفظ النصوص الأدبية دون أن تعاد عليها مرة ومرة ، على أن ابن العديم ينقض هذه القصة من حيث مكانها وزمانها لا من حيث هيكلها ، فيقف مناقشاً بطبيعة المؤرخ المتزن الذى لايريد أن ينقل أحداث التاريخ دون فهم ووعى ، فيعلق على هذه القصة بقوله :

«وهذه الحكاية فيهامن الوهم مالايخفى، وذلك أنه قال : كان بأنطاكية خزانة كتب إلى آخر ماذكره،وهذا شىء لايصح ،فأن أنطاكية أخذهاالروم من أيدى المسلمين فى ذى الحجةمن سنة٣٥٨هـ وولد أبو العلاء بعد ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر فى ربيع الأول من ٣٦٣هـ و بقيت أنطاكية فى أيدى الروم إلى أن فتحها سليمان بن قطلمش فى سنة ٤٧٧ هـ وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك فى سنة ٤٤٩ هـ وأخلاها الروم من المسلمين حين استولوا عليها ، فلا يتصور أن يكون بها خزانة كتب وخازن ، وتقصدللاشتغال بالعلم .

ويحتمل عندى أن يكون هذا بكفر طاب ، فقدكانت كفرطاب مشحونة بأهل العلم ، وكان بها من يقرأ الأدب ويشتغل به قبل أن يهجمها الفرنج سنة ٤٩٢ هـ وكانت لأبى المتوج مقلد بن نصر بن منقذ فى أيام أبى العلاء ، فلعله تصحف كفر طاب بأنطاكية

وتصحيفها بها غير مستبعد . فإن كان كذلك فابن منقذ ، الحاكى لهذه الحكاية ، هو أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ ، وأبوه نصر ، وكفر طاب قريبة من معرة النعمان ، ويحتمل أن ذلك كان بحلب . . ولم بها دار ومنزل ، وكان بها خزانة كتب فى الشرفية التى بجامع حلب فى موضع خزانة الكتب اليوم ، واتفقت فتنة فى بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة ونهبت خزانة الكتب ، وكان ذلك فى زمن أبى العلاء ، ولم يبق فى خزانة الكتب إلا القليل ، وجدد الكتب فيها بعد ذلك الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ، ثم وقف غيره كتباً أخرى بها . »

***

وقد دون ابن العديم فى هذا الفصل كل ماقرأه وسمعه ، ومازال يتنقل من قصة إلى قصة ومن نادرة إلى أخرى ، إلى أن قال :

«أخبرنا قاضى المعرة شهاب الدين أبو المعالى أحمد بن مدرك ابن سليمان قال : سمعت جماعة من أهلنا يقولون : كان أبو العلاء متوقد الخاطر ، على غاية من الذكاء من صغره ، وتحدث الناس عنه بذلك وهو إذ ذاك صبى صغير يلعب مع الصبيان ، فكان الناس يأتون إليه ليشاهدوا منه ذلك ، فخرج جماعة من أهل حلب إلى ناحية

معرة النعمان وقصدوا أن يشاهدوا أبا العلاء وينظروا مايحكى عنه من الفطنة والذكاء، فوصلوا إلى المعرة وسألوا عنه فقيل لهم: هو يلعب مع الصبيان، فجاؤوا اليه وسلموا عليه فرد عليهم السلام، فقيل له: إن هؤلاء جماعة من أكابر حلب جاؤوا لينظروك ويمتحنوك، فقال لهم: هل لكم في المقافاة بالشعر؟ فقالوا: نعم، فجعل كل واحد منهم ينشد بيتاً على قافيته، حتى فرغ محفوظهم بأجمعهم وقهرهم.

فقال لهم: أعجزتم أن يعمل كل واحد منكم بيتاً عند الحاجة إليه، على القافية التى يريد؟

فقالوا له: فافعل أنت ذلك.

قال: فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه على قافيته حتى قطعهم كلهم، فعجبوا منه وانصرفوا!..»

* * *

وعن قاضى المعرة أيضاً قال: أخبرنى جماعة من سلفنا: أن بعض أمراء حلب قيل له: إن اللغة التى ينقلها أبو العلاء هى من الجمهرة، وعنده من الجمهرة نسخة ليس فى الدنيا مثلها، وأشاروا عليه بطلبها منه قصداً لأذاه، فسير أمير حلب رسولا إلى أبى العلاء يطلبها منه، فأجابه بالسمع والطاعة، وقال: تقيم عندنا أياماً حتى

تقضي شغلك . ثم أمر من يقرأ عليه الجمهرة ، فقرئت عليه حتى فرغوا من قراءتها ، ثم دفعها إلى الرسول وقال له : ماقصدت بتمويقك إلا أن أعيدها على خاطرى خوفاً من أن يكون قد شذ منها شيء عن خاطرى. فعاد الرسول وأخبر أمير حلب بذلك فقال : من يكون هذا حاله لا يجوز أن يؤخذ منه هذا الكتاب ! وأمر برده إليه .

* * *

ومع طول هذا الفصل فانه يتضمن أمالى أدبية طريفة لا بأس من نقل بعضها ، قال ابن العديم :

«وذكر القاضى الرشيد أبو الحسين أحمد بن على بن إبراهيم ابن الزبير المصرى فى كتاب جنان الجنان ، قال : حدثنى القاضى أبو عبد الله محمد بن سند القنسرى بمصر قال : حدثنى أبى قال : بتنا عند أبى العلاء المعرى فى الوقت الذى كان يملى فيه شعره المعروف بـ « لزوم مالا يلزم » فأملى فى ليلة واحدة ألفى بيت ، كان يسكت زماناً ثم يملى قريباً من خمسمائة بيت ، ثم يعود إلى الفكرة والعمل ، إلى أن كملت العدة المذكورة . . . .

وحكى أن أبا محمد الخفاجى الحلبي لما دخل على أبى العلاء سلم عليه ولم يكن يعرفه أبو العلاء ، فرد عليه السلام ، وقال : هذا رجل طوال ،

ثم سأله عن صناعته ، فقال : أقرأ القرآن، فقال : اقرأ عليّ شيئاً منه، فقرأ عليه عشراً فقال له : أنت أبو محمد الخفاجى الحلبى؟ فقال: نعم، فسئل عن ذلك فقال : أما طوله فعرفته بالسلام ، وأما كونه أبا محمد فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب، فإننى سمعت بحديثه»

* * *

«سمعت والدى رحمه الله يقول : بلغنى أن أبا العلاء بن سليمان كان يعجبه قصيدة التهامى التى يرثى بها ولده وأولها :

حكم المنية في البرية جار   ما هذه الدنيا بدار قرار

قال : فكان لا يرد عليه أحد من أهل العلم إلا ويستنشده إياها لإعجابه به بها ، فقدم التهامى معرة النعمان ، ودخل على أبى العلاء فاستنشده إياها فقال له: أنت التهامى؟

قال : نعم ، وكيف عرفتنى ؟

فقال : لأنى سمعتها منك ومن غيرك ، فأدركت من حالك أنك تنشدها من قلب قريح ، فعلمت أنك قائلها .

هذا معنى ماذكره لى والدى رحمه الله .

حرمته ومكانته

والفصول الأخيرة من كتابه الانصاف والتحرى، فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى ـ الفصول التى وصلتنا خصها ابن العديم بذكر حرمته عند الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء؛ وعن اضطلاعه بالعلم والأدب، ومعرفته باللغة ولسان العرب، ثم عقد فصلا ذكر فيه كرم أبى العلاء وجوده، على قلة ماله ونزارة وجوده؛ واختتمت المخطوطة بفصل ذكر فيه قناعة نفسه وشرفها وعفتها عن أخذ صلات الناس وظلفها . وقبل أن نلمع الى الفصول المفقودة من الكتاب وهى الفصول التى خصها بالدفاع عن أبى العلاء نمر مروراً سريعاً بهذه الفصول الأربعة التى عقدها ابن العديم لنكمل هذه السيرة بقلم قاضى القضاة، وهى قصة شائقة لما تميزت به حياة فيلسوف المعرة وما مر بها من أحداث جديرة بترديدها وتلاوتها .

قال ابن العديم يصف حرمة أبى العلاء عند الملوك والخلفاء ومركزه السامق عند الأمراء والوزراء :

«ومازالت حرمة أبى العلاء فى علاء، وبحر فضله مورداً للوزراء والأمراء . وما علمت أن وزيراً مذكوراً، وفاضلا مشهوراً، مر بمعرة

النعمان، فى ذلك العصر والزمان، إلا وقصده واستفاد منه، أو طلب شيئاً من تصنيفه أو كتب عنه. وسيأتى فى أثناء فصول هذا التصنيف، مايدل على علو مرتبته وقدره المنيف. وقد كان المستنصر المتولى على مصر أحد العبيديين الذين ادعوا الخلافة، بذل لأبى العلاء مابيت المال، بمعرة النعمان من الحلال، فلم يقبل منه شيئاً. وسنذكر ذلك فى موضعه.

وكذلك داعى دعاتهم بمصر أبو نصر هبة الله بن موسى المؤيد فى الدين، حين بلغه أن الذى يدخل لأبى العلاء فى السنة من ملكه نيف وعشرون ديناراً كتب الى تاج الأمراء ثمال بن صالح، وكان إذ ذاك نائباً عن العبيديين بحلب وبمعرة النعمان، بأن يجرى ماتدعو اليه حاجته بجميع مهامه وأسبابه، وما يحتاج اليه مما هو بلغة له من ألذ الطعام، وأن يضاعف حرمته ويرفع منزلته عند الخاص والعام، فامتنع من قبول ذلك، وسنذكره أيضاً فى موضعه عند الحاجة إلى ذكره.

وكان الأمير عزيز الدولة أبو شجاع فاتك بن عبد الله أمير حلب يطلب منه أن يصنف له تصانيف، ويحترمه ويرفع رتبته، ويقبل شفاعته، وقدم اليه إلى معرة النعمان . . .

وكذلك أمير الجيوش أنوشتكين الدزبرى أمير حلب ودمشق، كان يثنى على أبى العلاء . . . »

ثم ذكر قصته مع أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب وقبوله شفاعته فى أهل معرة النعمان، بعد أن كاد يبطش بهم سنة ٤١٧ هـ . ويروى ابن العديم هذه القصة على روايتين : إحداهما — أن منكراً ظهر بمعرة النعمان فى زمن صالح بن مرداس، فعمد شيوخ البلد الى إنكار ذلك المنكر، فأفضى الى أن قتلوا الضامن بها، وأهرقوا الخمر، فجمعهم والى حلب واعتقلهم وكان فيهم بعض بنى سليمان، فجاء الجماعة الى الشيخ أبى العلاء وقالوا له : إن الأمر قد عظم وليس له غيرك، فسار إلى حلب ليشفع فيهم . . . الى آخر الرواية .

والثانية — ما ترويه كتب الأدب ؛ ورواية ابن العديم أوسع وهذه هى :

« ذكر لى بهاء الدين أبو إسحق أنه سار الى حلب، وما أظن أن أبا العلاء بعد رجوعه الى معرة النعمان من بغداد خرج عن المعرة، ولهذا سمى نفسه رهن المحبسين . وقد قرأت هذه الحكاية فى تاريخ سيره إلىّ بعض الهاشميين بحلب لأبى غالب همام بن الفضل ابن جعفر بن المهذب قال: سنة سبع عشرة وأربعمائة، فيها صاحت

امرأة فى الجامع يوم الجمعة ، يعنى بمعرة النعمان ،وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، فنفر كل من فى الجامع إلا القاضى والمشايخ . وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه ، وكان أسد الدولة صالح في نواحى صيدا ، ثم قال فى هذا التاريخ : سنة ثمان عشرة وأربعمائة — فيها وصل الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس الى حلب وأمر باعتقال مشايخ المعرة وأماثلها ، فاعتقل سبعون رجلا فى محبس الحصن سبعين يوماً ، وذلك بعد عيد الفطر بأيام ، وكان أسد الدولة غير مؤثر لذلك ، وإنما غلب تاذرس على رأيه ، وكان يوهمه أنه يقيم عليهم الهيبة ، ولقد بلغنا أنه خاطبه في ذلك فقال له : أقتل المهذب وأبا المجد — يعنى أخا أبى العلاء — بسبب ماخور ! ما أفعل ، وقد بلغنى أنه دعا لهم في آمد وميا فارقين ، وقطع عليهم ألف دينار ، واستدعى الشيخ أبا العلاء بن عبد الله بن سليمان رحمه الله بظاهر معرة النعمان،فلما حصل عنده في المجلس ، قال له أبو العلاء :

مولانا الأمير ، السيد الأجل ، أسد الدولة ، ومقدمها وناصحها كالنهار الماتع ، اشتد هجيره ، وطاب أبرداه وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حداه ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين.

فقال صالح : قد وهبتهم لك أيها الشيخ .

ولم يعلم الشيخ أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، وإلا كان قد سأل فيه . ثم قال الشيخ أبو العلاء بعد ذلك شعراً :

تغيبت فى منزلى برهـــة ستير العيوب قليل الحسـد
فلما مضى العمر إلا الأقل وحم لروحى فراق الجسد
بعثت شفيعـاً إلى صـالح وذاك من اقوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحمـام وأسمع منــه زئير الأسد
فلا يعجبنىّ هـذا النفاق فـكم نفّقت محنـة ما كسد

وقد ذكر بعض الرواة أن صالحاً قال له عندما أنشده هذا الشعر : نحن الذين تسمع منا سجع الحمام وأنت الذى نسمع منك زئير الأسد.

وهـذا تاذرس المشار اليـه في هذه الحكاية هو تاذرس بن الحسن النصرانى ، وكان وزير صالح بن مرداس وصاحب السيف والقلم ، وكان متمكنا عنـده ، وكان فى نفسه من أهل المعرة شيء لأنهم قتـلوا حماه الحورى ، وكان يؤذيهم فتتبع قتلته ، وصلبهم وقتلهم ، فلما أنزلوا عن الخشب ليصـلى عليهم ويدفنوا قال النـاس حينئذ يكايدون النصـارى : قد رأينا عليهم طيورا بيضا ، وماهى إلا الملائكة ، فبلغت هذه الكلمة تاذرس ، فنقمها على أهل المعرة ، واعتدها ذنبا لهم ، فلما اتفقت هـذه الواقعة من نهب الماخور شدد تاذرس عليهم لذلك . »

ثقافته الأدبية

أما الفصل الذى عقده عن اضطلاعه بالعلم والأدب ، ومعرفته باللغة ولسان العرب ، فلا حاجة إلى إيراده ، وفيه يقص ابن العديم مكانة أبي العلاء فى فنون الأدب مما نكتفى بالإلماع اليه .

كرمه وجوده

وقد أعقب هذا الفصل بفصل عن كرمه وجوده ، على قلة ماله ونزارة موجوده ، فذكر عدة قصص حسبنا منها هذه القصة الطريفة مع تلميذه الخطيب التبريزى ؛ قال ابن العديم :

وأخبرنى القاضى شهاب الدين أبو المعالى أحمد بن مدرك ابن سليمان ، يأثره عن المعريين ، أن الخطيب أبا زكريا التبريزى قدم على الشيخ أبي العلاء وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وأعطاه الخطيب صرة فيها ذهب وقال له : أوثر من الشيخ أن يدفعها إلى بعض من يراه يشترى لى بها خبزاً ولحما وما تدعو حاجتى اليه ، ويجرى ذلك على فى كل يوم لأتناوله مدة مقامى عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على

الاشتغال ، ويتفرغ بالى للاستفادة ، ويترفه خاطرى ، ولا يكون لى شغل غير ما أنا بصدده .

فأخذ الشيخ أبو العلاء الصرة منه ووضعها عنده وتقدم إلى وكيله وأجرى للخطيب ماتدعو إليه حاجته، فتناول ذلك مدة مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أنه من ذهبه الذى دفعه إلى الشيخ .

فلما أراد الانصراف ودع الشيخ أبا العلاء فدفع اليه صرته بعينها ، فقال الخطيب للشيخ : ماظننت أنك تفعل هذا ولا أردت التثقيل عليك بغير الاستفادة من علمك ، وعرض له بأخذه ، فقال الشيخ : قد كان ذلك ولا سبيل إلى رد هذه الصرة علىّ ، وهذا ذهبك بعينه . فأخذه الخطيب وانصرف رحمهما الله تعالى . وكان الخطيب فقيراً محتاجا .

* * *

والفصل الأخير من المخطوطة عن قناعة نفسه وشرفها، وعفتها عن أخذصلات الناس وظلفها ، وقدسرد فيه قصصاً طريفة تصور علو نفسه وعزوفه عن زخارف الدنيا مما لاحاجة إلى إيراده بعد الذى قدمناه .

وبه ، أى بهذا الفصل، ينتهى ماوجد من الكتاب في خزانة السرىّ الحلبى .

ونفهم من عدة نصوص أن المخطوطة ناقصة ، ففى أكثر من فصل واحد يذكر ابن العديم المؤرخ أنه سيستوفى الكلام عن هذه الناحية فى موضعه ، ونحاول أن نبحث عن هذا الذى أشار اليه فلا نجده ، وبدهىّ وقد كتب كتابه هذا للدفاع عن أبى العلاء وإنصافه ودفع الظلم عنه — بدهىّ بعد أن يستوفى الكلام عن حياته وما رافق هذه الحياة من أحداث، أن يعرض إلى الموضوع الذى ألف الكتاب من أجله .

نعم ، لقد عرض ابن العديم إلى كل ناحية من نواحى حياته فكتب عنها بإسهاب ، فلما وصل إلى لب الموضوع — إلى ناحية الدفاع عنه وتبرئته مما وصمه به خصومه — لم نر شيئا .

لا شك أن ابن العديم ، وهو مؤلف خصب الإنتاج ، واسع الاطلاع ، كتب أكثر من كتاب واحد فى عدة موضوعات، وكتب تاريخ حلب فى أربعين مجلدا — لن يقف من كتابته عن أبى العلاء عند الحد الذى أشرنا اليه ، بل كتب مئات الصفحات وغاص إلى أعماق فلسفته ، وبسط هذه القضايا التى كانت تشغل معاصريه ، وعرض إلى أقواله فى الزمان والمكان ، فى البعث والنشور ، فى الرسل والديانات ، فى المخلوق والخالق ، فرد على متهميه ودفع الظلم عنه ،

وأنصفه بعد البحث والتحقيق ، كل الإنصاف .

* * *

لقد كان المعرى فى طليعة مفكرى العرب ، وكفيلسوف متشائم حر أطلق رأيه بجرأة فى الكثير من قضايا الفكر والنفس والروح ، فى حقائق الكون، فى طوايا البشر ، وقد فسر رأيه تفسيرات ملتوية أثارت عليه حفيظة الكثيرين من معاصريه الذين عقدوا فصولا طويلة عن سوء معتقده .

وهذا ياقوت يجمع لنا فى الفصل الذى عقده عن أبى العلاء ، طائفة من أقوال معاصريه ومن إليهم ممن جاء بعدهم من الكتاب والمؤرخين ، وفيه نرى اتهاماتهم الصريحة فى عقيدة فيلسوفنا الشاعر :

حسبنا أن نقف وقفة قصيرة عند هذه الصفحات :

قال ياقوت :(١)

«ومن شعره الدال على سوء عقيدته من« لزوم مالا يلزم(٢) » :

فقد طال العناء فكم تعانى سطوراً عاد كاتبها بطمس
دعا موسى وزال، وقام عيسى وجاء محمد بصلاة خمس

---

(١) معجم الادباء ج ٣ ص ١٦٣ طبعة مصر
(٢) اكتفينا ببعض المقاطع دون جميع ما أثبته ياقوت

وقيل يجيء دين غير هذا ... فأودى الناس بين غد وأمس
إذا قلت المحال رفعت صوتى ... وإن قلت اليقين أطلت همسى

ومن ذلك أيضا :

إذا ما ذكرنا آدماً وفعاله ... وتزويجه بنتيه لابنيه فى الخنا
علمنا بأن الخلق من أصل زنية ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

ومن أشعاره الدالة على سوء اعتقاده :

وهيهات البرية فى ضلال ... وقد نظر اللبيب لما اعتراها
تقدم صاحب التوراة موسى ... وأوقع فى الخسار من افتراها
فقال رجاله وحى أتاه ... وقال الناظرون بل افتراها
وما حجى الى أحجار بيت ؟ ... كؤوس الخمر تشرب فى ذراها
إذا رجع الحليم الى حجاه ... تهاون بالمذاهب وازدراها

وله أيضا :

خذ المرآة واستخبر نجوما ... تمر بطعم الأرى (١) المشور (٢)
تدل على الممات بلا ارتياب ... ولكن لا تدل على النشور (٣)

(١) الأرى : العسل (٢) أى المجتنى تقول : اشتار العسل : جناه
(٣) البعث والخروج من القبور

ومنها أيضا :

هفت الحنيفة[1] والنصارى ما اهتدوا
ويهود حارت والمجوس مضللة
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا
دين ، وآخر ديّن لا عقل له

ومنها أيضا :

إن الشرائع ألقت بيتنا إحنا[2]
وأورثتنا أفانين العداوات
وما أبيحت نساء الروم عن عرض
للعرب إلا بأحكام النبوات

ومنها أيضاً :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

---

(١) دين الاسلام

(٢) جمع إحنة ، العداوة

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

ومما يدل على كفره تصريحاً قوله :

عقول تستخف بها سطور ولا يدرى الفتى لمن الثبور(١)
كتاب محمد وكتاب موسى وإنجيل ابن مريم والزبور

ومن ذلك أيضاً :

صرف الزمان مفرق الإلفين فاحكم إلهى بين ذاك وبينى
أنهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت أنت لقتلها ملكين؟
وزعمت أن لها معاداً ثانيا ما كان أغناها عن الحالين!

ومن ذلك أيضاً :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً ، وترزق أحمقا
فلا ذنب يارب السماء على امرىء رأى منك مالا يشتهى فتزندقا

ومن ذلك أيضا قوله :

قلتم لنا خالق قديم صدقتم : هكذا نقول
زعمتموه بلا زمان ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول

---

(١) الثبور : الهلاك

ومن ذلك أيضاً قوله :

دين وكفر وأنباء تقال ، وفر
قان ينص ، وتوراة وإنجيل
فى كل جيل أباطيل ملفقة
فهل تفرد يوماً بالهدى جيل ؟

ومن ذلك أيضاً قوله :

ولاتحسب مقال الرسل حقًّا
ولكن قول زور سطروه
وكان الناس فى عيش رغيد
فجاؤوا بالمحال (١) فكدروه

قال المؤلف : نقلت هذا كله من تاريخ غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن الصابىء ، وحمدت الله تعالى على ما ألهم من صحة الدين وصلاح اليقين واستعذت به من استيلاء الشيطان على العقول .

قرأت فى كتاب «فلك المعانى» أن كثيراً من الجهال يعدّ الموت ظلماً من البارى عز وجل ، ويستقبحه بما فيه من النعمة والحكمة ، والراحة والمصلحة . وقد قال أبو العلاء مع تحذلقه ودعواه

---

(١) المكر

الطويلة العريضة وشهرة نفسه بالحكمة ومظاهرته :

وتهيت عن قتل النفوس تعمداً … وبعثت أنت لقتلها ملكين

وزعمت أن لها معادا ثانيا … ما كان أغناها عن الحالين !

وهذا كلام مجنون معتوه ، يعتقد أن القتل كالموت ، والموت كالقتل ، فليت هذا الجاهل لما حرم الشرع وبرده ، والحق وحلاوته ، والهدى ونوره ، واليقين وراحته ، لم يدع ماهو برىء منه بعيد عنه ، ولم يقل :

غدوت مريض العقل والرأى فالقنى … لتعلم أنباء العقول الصحائح »

***

ونقف عند هذا الحد مما نقله ياقوت ، لنتساءل : ما رأى ابن العديم فى أقوال أبى العلاء وفى أقوال خصومه ؟

لاشك أن ابن العديم وهو صديق ياقوت ، قد اطلع على الفصل الذى عقده عن أبى العلاء ، ولا شك أنه رد عليه ردا مفحما . .

فأين القسم الباقى من الكتاب ؟

من المؤلم جداً ألاّ يظفرنا الدهر بهذا القسم من رسالة قاضى قضاة حلب ! فلرأيه قيمته ، وقد عرفنا هذا الرأى من عنوان الكتاب وعرفناه صريحا من المقدمة التى حمل فيها حملة شعواء على خصوما

الذين جعلوا «محاسنه عيوباً ، وحسناته ذنوباً ، وعقله حمقاً ، وزهده فسقاً ، فرشقوه بأليم السهـام ، وأخرجوه عن الدين والإسلام ، وحرفوا كلامه عن مواضعه ، وأوقعوه فى غير مواقعه»

وهذا الذى دفع ابن العـديم ، بعد أن قرأ أكثر مصنفات أبى العلاء أن يكتب رسالته هـذه يدفع عنه هذه التهم التى اختلقها خصومه والذين حكوا كفره بالأسـانيد ، وشددوا فى ذلك غاية التشديد ، وكفره من جاء بعدهم بالتقليد .

يقول ابن العديم تعقيباً على هذه الفقرات فى مقدمته :

«فابتدرت دونه مناضلا ، وانتصبت عنه مجادلا ، وانتدبت لمحاسنه ناقلا ، وذكرت فى هذا الكتاب مولده ونسبه وتحصيله العـلم ، وطلبه ، ودينه الصحيح ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوى وجده ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنـه وصده»

وإذا كنا وقفنا من الكتاب على الفصول التى عقدها عن مولده ونسبه وتحصيله للعلم . . و . . . . و . . فأين الفصول التى عقدها عن دينه الصحيح ، ومذهبه ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصده . أين هذه الفصول ؟...

من المؤلم ألاّ يظفرنا الدهر أو خصوم أبى العلاء بهذا الذى كتبه ابن العديم ! !

ولكن أما وقد عرفنا رأيه الصريح من المقدمة، ومما جاء فى بعض فصول الكتاب وهو يقص سيرة حياته – فإننا نقدر قيمة ما كتبه الشيخ كمال الدين ، قاضى قضاة حلب الذى لم يضطلع بهذه المهمة الخطيرة إلا بعد وثوقه من القضية التى نصب نفسه للدفاع عنها ، كالمحامى النزيه الذى لا يقحم نفسه بالدفاع عن قضية ما إلا بعد أن يستوثق من أحقية القضية وعدالتها .

نعم ، ولعل الزمن يظفرنا ، فى يوم ما بنسخة كاملة من هذه المخطوطة ، فيتاح لنا نشرها كاملة كوثيقة من وثائق الدفاع عن حرية الفكر فى العصر السابع الهجرى كتبها المؤرخ المحقق كمال الدين ابن العديم – هذا القاضى ، الوزير السفير الذى لعب أكبر دور فى تاريخ حلب السياسى ، وتاريخ العلاقات بين مصر والبلاد العربية، وكان حظه من الأدب والتاريخ والجهاد القومى والفكرى ما يضعه فى طليعة مفكرى العرب ورجالاتها البارزين .

١٩٤٣ / ٣ / ٣٠

من نصوص المعاصرين
في عقيدة الدين المجسمين

(١)

أكثر الذين ينتصرون لأبي العلاء يثبتون أنه رجل مسلم سنيّ : وأما ما في كلامه مما يشير إلى خلاف ذلك فمكذوب ، أو موهم يجب تأوله والتأمل فيه . والذين يثبتون له الشك لا يريدون بذلك تقرير حقيقة علمية في فلسفة الرجل ، وإنما عجزوا عن إثبات إسلامه ، وضنوا به على الإلحاد ، فوقفوه موقف الشك الذي يرجى أن يغفره الله ويعفو عنه . والواقع أن أبا العلاء لم يتخذ لنظره الفلسفي مذهب أهل السنة ، ولا مذهب السوفسطائية وأصحاب الشك ، ولا مذهب المعتزلة أيضاً .

ذلك أنه لا يؤمن إلا للعقل وحده ، نخالف بهذا أهل السنة لأنهم يقدمون الشرع على العقل ، وإن آمنوا به . وخالف مذهب المعتزلة لأنهم على تقديمهم للعقل يتخذون الشرع لنظرهم أصلا ودليلا يعتزون به ويلجأون اليه . وخالف مذهب السوفسطائية ، لأنهم يتهمون العقل فلا يؤمنون له ، ولا يعتمدون عليه . وإذاً فهو يرى رأى الفلاسفة النظريين ، من اليونان ، والمسلمين ، في الاعتماد على العقل خاصة .

أبو العلاء كان منكراً للنبوات ، جاحداً لصحتها ، وقد نص على ذلك فى اللزوميات صراحة غير مرة ؛ فطوراً يثبت أنها زور ، وطوراً يجعلها مصدر الشرور ، وافتن فى ذلك افتناناً عجيباً : فلم يكتف بانكار النبوات ، حتى أنكر الديانات عامة. وزعم أنها للعقل مخالفة ، وعن شرعته صادقة ، يسلك فى ذلك مسلك التورية مرة ، والتصريح مرة أخرى . . .

طه حسين

(٢)

لقى أبو العلاء من الذين تصدهم ظواهر الألفاظ دون بواطنها ، مايلقاه كل مفكر خاص من أغلال التقليد : فاتهمه من لا يفهمه بالإلحاد والزندقة . وقولوه ما لم يقله من الشعر المزرى بالأديان ، الحاط من كرامة مؤسسيها ، وتصدى كثير من أئمة المتأدبين لتبرئته مما نسب اليه ، فكان من أثر ذلك أن تكون حول اسمه جو غريب حمل الكثيرين من أهل الورع على كراهية شعره ، حتى إن مصحح المطبعة الأميرية تحرج منذ أربعين سنة من تصحيح لزوميات أبى العلاء ، وكان ناشرها يطبعها هناك . فجاءت كثيرة الأخطاء من جراء ذلك .

لم تكن لأبي العلاء المعرى فلسفة معينة ، ولا مذهب مقرر ، فان كان لابد من وضع اسم على الحالة التي كانت عليها نفسيته ، فهي الحيرة والتشاؤم الممزوج بالتهكم ، أشبه الناس به من معاصرينا كان السيد جميل صدقي الزهاوى الشاعر البغدادى رحمة الله عليه ، فقد كان حائراً متناقضاً متشائماً متهكما ، فبينما كان يقول :

قال ما دينك الذى كنت فى الد   نيا عليه وأنت شيخ كبير
قلت كان الإسلام دينى وهو   دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذى عبدت فقلت الـ   ـله ربى وهو السميع البصير

إذا به يقول :

لما جهلت من الطبيعة أمرها   وأقمت نفسك فى مقام معلل
أثبت رباً تبتغى حلاً به   للمشكلات فكان أكبر مشكل

ويقول :

أنا ما كفرت كل عمـ   ـرى بالكتاب المنزل
أنا لم أزل أشدو بنعـ   ـت للنبى المرسل

فهذه الحالة من التناقض والحيرة التى كان عليها الزهاوى ، وكان عليها قبله شيخ المعرة ، لا تصح أن تكون مذهباً ولا مستمدة من مذهب .

محمد فريد وجدى

(٣)

وقد نقل المعرى الشعر العربى فى عصره نقلة واسعة المدى : حمل الشعر من المعانى الفلسفية العميقة ومن الآراء النظرية المتباينة ما لم يسبقه اليه غيره من شعراء العرب إلا لماما، وقد اتهم لذلك بالزندقة آناً ، وبالإلحاد آخر ، على حين اعتبره قوم على رأس أشد المؤمنين غلواً فى إيمانهم . ولا عجب فى هذا ولا فى ذاك ، فتقليب الأفكار وعرضها على الناس ، مطبوعة بطابع من يعرضها ، منكرة فى كثير من الأحايين ما وجد الناس عليه آباءهم ، قد كان فى عصور كثيرة وفى بلاد مختلفة ؛ موضع الريبة والظن ، بل موضع الاتهام والتجنى. ذلك أمر لم تنفرد به البلاد العربية ولا البلاد الإسلامية ، بل جرى حكمه على الأمم كلها فى الأزمان المختلفة ، وكان فى بعض الأمم سبباً فى تعذيب أصحاب الرأى لرأيهم، مما نجا منه العرب والمسلمون ، فلم يتورطوا فيه كما تورط أهل أوروبا فى القرون الوسطى.

محمد حسين هيكل

(٤)

لو أن المعرى كان كاهناً هندياً برهمياً متريضاً لما عجبنا للأمر — أمر تحريم اللحوم — لأنه إنما يخضع لسلطان عقيدة دينية ويخشى عقاب قدرة إلهية. أما وهو رجل قد شك فى الديانات وهزأ بشعائرها وفرائضها فمن العجيب حقاً ألا يكون له باعث على ترك اللحم أربعين سنة إلا الإيمان بمذهب البراهمة .

العقاد

(٥)

لم يصل الينا من آثار أبى العلاء العلمية والأدبيـة إلا قل من كثر ، والذى وصل الينا مغمور بالشعور الدينى ، طافح بالأدلة على إيمان أبى العلاء وصحة عقيدته ، ومن هذه الآثار ما زعم قوم أنه عارض به القرآن واتخذوا ذلك وسيلة للطعن فى دينه. فلما طبع بعضه تبين أن ليس فيه شىء من المعارضة ، وإنما هو تمجيد لله .

وأعظم كتاب فيه ما يتمسك الطاعنون به هو «لزوم ما لا يلزم» فإن فيه أبياتاً تتعلق بالنبوات لا يمكن تأويلها على وجه قوى ، وهى

قليلة جدّا ، فان كانت مما أدخله عليه تلاميذه وحساده ؛ وهو أقرب إلى حالة أبي العلاء ، فلا يؤاخذ بهـــا ؛ وقد افترى عليه فى حياته واستدعاه أمير حلب من أجل أبيات حرفها أعداؤه ؛ فأبان تحريفهم وافتراءهم بنسخ كانت فى حلب لم تصل إليها أيدى المفترين ؛ فلمــا تبين الأمير صحة ما قاله رده إلى بلده مكرماً .

* * *

وفى السقط والفصول وملقى السبيل وغيرها مالا يعدمن الشواهد الصريحة الواضحة . ومنهم من يقتضب جملة من قوله فى رسالة ، أو بيتاً من شعره فى قصيدة ، فيزعم أن أبا العلاء أراد به معارضة القرآن. والمنصف يرى أثر التعنت والافتراء جليّــا فى هذه المزاعم .

حسبنا أن نعلم أن العلماء أسرفوا فى تكفير أبى العلاء . واعتمدوا فى ذلك على شبه وأوهام ، وأنهم جعلوا دينه نهباً مقسما بين الأديان، فجعلوه زنديقاً وملحداً ومزدكيّاً وبرهميّـاً وقرمطيّـاً ودهرياً، ولا يستبعد أن يأتى يوم يجعل فيه أبو العلاء متديناً بكل دين كان، معتصما بكل نحلة تكون ، معتقداً لكل مذهب سيكون .

سليم الجندى

عضو المجمع العلمى العربى

(٦)

تتبعت ما وصل إلى يدى من شعر أبى العلاء ونثره ، فرأيت الرجل مؤمناً بالله إيماناً صادقاً راسخاً يصفه بجميع صفات الكمال ، وينزهه عن جميع صفات النقص ، أما الايمان والنبوات واليوم الآخر وما إلى ذلك فيمكنك أن تجمع من شعر أبى العلاء ونثره مجموعاً يصلح أن يكون مرجعاً للمتقين ، والزهاد المخلصين . ومن الجهة الأخرى يمكنك أن تلتقط نتفاً منتثرة فى ثنايا منظومه ومنثوره تعبر عن تردده وشكوكه ، وهذا مادعا الكثيرين من الأولين إلى القول بأنه من أهل الشك . على أنه لا يعسر على اللبيب تأويل الكثير من تلك الأقاويل ، وإعادتها إلى نصاب الصواب.

* * *

لقينى شاب بالأمس ، فسألنى : أأبو العلاء مؤمن أم كافر ؟

فقلت له على الفور :

أتريد أن تجعله إماماً في مسجد ؟ انتقل الرجل إلى جوار ربه ، وهو أعلم بدخيلة أمره ، وجلية سره . فما شأنى وشأنك فى هذا ؟

طه الراوى
عضو المجمع العلمى العربى

(٧)

لأبي العلاء فلسفته إلهية ، وهى جانب كبير من فلسفته ، والدين من أهم المسائل التى شغلت لبه طول حياته ، وهو شاك رافض لمعظم ما كان يدين به معاصروه من عقائد ، متعجب لما يرى من خلاف بين أتباع اليهودية والمسيحية والاسلام ، وليس ينفرد أبو العلاء بالشك والزيغ بين أدباء العربية ، ولكنه يمتاز عن سواه فى هذا الأمر امتيازه عنه فى سواه ، فان المتزندقين من أمثال بشار وحماد وأبي نواس كانوا قوماً مستهترين متهالكين على اللذات لايكربهم أمر الدين إلا ريثما يتهكمون بالمؤمنين ويتحدّون عقائدهم.

أما أبو العلاء فكان زاهداً لا مستهتراً ، محرماً على نفسه متع الدنيا لا متهافتاً عليها . وما انتهى إلى الشك اعتباطاً ولا استهتاراً ولا لسوء صحبة أو ضعة بيئة أفسدت خلقه ومعتقده ، وهو الناشىء فى بيت التقى والفضل ، وإنما انتهى فكره الناصب إلى الشك بعد طول التأمل والنظر وبعد شديد العناء والجهد ، وبعد أن حاول أن يصل إلى اليقين ، ويقتنع بما يقتنع به غيره دون طويل بحث ولا تساؤل . وكم طلب اليقين من جهينة كما قال فلم تخبره جهينة سوى الظن ، ولو ارتاحت نفسه إلى الإيمان عن اقتناع لكان أول المؤمنين وأحسنهم عقيدة .

فخرى أبو السعود

(٨)

فالمعرى ، على ما أعتقد استنباطاً من أشعاره وأقواله ، زاهد غاية فى الزهد ، عابد منقطع فى عبادته ، متقلل يأخذ نفسه بالخشونة قانع باليسير ، معرض عن الدنيا وزخرفها ، وهذا مما يجعلنى أميل إلى الاعتقاد بأن « نباتيته » ناشئة عن شفقته وزهده وتقشفه لا عن زندقته وإلحاده .

أما ماورد فى أشعاره مما يصح أن يؤخذ عليه فلا يبعد أن يكون مدسوساً عليه للنيل منه ، فقد جاء عنه : « أنه كان يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الإشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه وإيثاراً لإتلاف نفسه »

ومما يدل على ذلك قوله :

حاول إهوانى قوم فما   واجهتهم إلا بإهوان
يخرشونى بسماياتهم   فغيروا نية إخوانى
لو استطاعوا لوشوا بى   إلى المريخ فى الشهب وكيوان

الدكتور محمد عبد الحميد

الاضطراب السياسي
في عصر أبي العلاء
وأثره في بيئته وشعره

البحث الذي ألقاه المؤلف في المهرجان الألفي
لأبي العلاء المعري بدعوة من المجمع العلمي العربي

عاش شاعرنا الفيلسوف فى فترات الانهيار السياسى ـ فى تلك الفترات السود التى تصدعت فيها السيادة العربية على مذبح الشهوات التى كانت تضطرم فى صدور المتغلبين من الديلم ومن إليهم من الأعاجم المتسلطين .

نعم ، عاش شاعرنا فى نهاية هذه الفترات والبلاد العربية تعصف بها الزعازع وتهزها الأعاصير . فكان الحكم فى بغداد غيره فى مصر ، وفى بلاد الشام غيره فى القطرين المتنابذين . وهو فى أقصى المغرب ، في الأندلس وفى شمال إفريقية ، غيره فى الأقطار العربية الثلاثة ـ كل شىء قد تعرض للتميّع والتفكك ، ففسدت الحياة السياسية وفسدت الحياة الاجتماعية حتى أصبحت الدنيا العربية وكأنها على بركان .. دول مختلفات المنازع والأهداف قد انتثرت فى الرقعة الإسلامية الكبرى ، نزعات فردية فى إهاب من من المطامع الصارخة تجيش فى كل صدر ، جمعيات سرية تستهدف غايات مريبة ، مذاهب جديدة هدامة ترمى إلى نزعات سياسية خطيرة.

كل شىء قد فسد واضطرب ، وأبو العلاء ينظر إلى هذه التيارات الجارفة نظرة الفيسوف الإنسانى المتألم وقد أشفق ـ وهو الحكيم البعيد النظر ـ أن تنهار هذه الأمبراطورية الكبرى في الفترة التى

وصلت فيها الحياة العقلية الى الذروة ، وأن يكون لبيئته النصيب الأوفر من مأساة هذا الانهيار ..

ولعل من أدق الأمور التى تستدعى انتباه الباحثين أن تجرى أحداث الحياة منذ فجر التاريخ الإسلامى فى الأقطار العربية الثلاثة مصر أو الشام والعراق — على غرار واحد من الإنشاء أو التهديم، من النظام والفوضى ، فما يجرى اليوم مثلا من تجاوب بليغ للنهوض والتحرر وللتطور والتماسك كان يجرى بالأمس ، فى تلك الفترة، وفى نفس هذه الأقطار بالضد ، من تنافس وتناحر ، من تنازع وتخاذل ، وثورات وفتن ، أدت إلى انهيار سحيق ذاق العرب مرارته طويلا عبر القرون .

هذا التنازع الذى كان طابع الحكومات الإسلامية فى عصر أبى العلاء هو الذى قضى على ما كان للخلافة من السلطان السياسى. ذلك السلطان الذى تجاذبته مصر وبغداد مدة غير قصيرة .

كانت بغداد خاضعة للديلم أو للأسرة البويهية التى حكمت العراق وفارس حكما أوتوقراطيا فيه هذا التكالب على السلطة والمال وهذا التزاحم على المجد والسلطان ، وهذا الصراع الدامى بين أبناء العمومة وحتى بين الأخ وأخيه . وإذا كان للخلافة هذا السلطان

المدوّى فى الرقعة الإسلامية الكبرى ، وكانت النفوس تتطلع إلى بريق سلطانها كقوة من القوى الروحية والزمنية معاً ، كان من البداهة بمكان ، وقد تقلص ظلها فى بغداد ، أن يطمح إليها الفاطميون بعد أن ملكوا مصر .

وللفاطميين هذه الدعوى التى تربطهم بآل البيت . فقد ادعوا هذه الوشائج القوية بين نسبهم ونسب فاطمة بنت الرسول ، وبرغم ماقامت به بغداد من الاحتجاج الصارخ على هذه الدعوى الباطلة ، وما تبع ذلك من احتجاج بعض المنتسبين إلى آل البيت فى القاهرة نفسها وطلبهم الحجة الساطعة على هذا البرهان ، فقد أثبتوا هذه الدعوى بقوة السيف وبريق الذهب . وكلمة المعز لدين الله يذكرها كل من قرأ تاريخ الفواطم: أتريدون البرهان على نسبي؟ها كم فاقرأوه !

سل نصف سيفه من غمده ، وقال لهم : هذا نسبي !

ونثر عليهم ذهباً كثيراً ، وقال : هذا حسبي ! . .

ماذا كان موقف المعارضين من هذين البرهانين القاطعين ؟

كان جواب الجميع : السمع والطاعة !

وانتهت ذيول هذه الحركة عند هذا الحد ، وأصبحت الخلافة فى مصر أقوى منها فى بغداد ، وأخذت الدعوة العباسية تنكمش فى

حدود ضيقـة بعد أن أصبح الخليفة الشرعى فى بغداد ، ألعوبة فى أيدى الأمراء البويهيين المتسلطين . .

والشام ـ وأريد بيئـة المعرى ـ ماذا كان شأنها فى جون هذه الأحداث ؟

كانت مسرحا لفتن وحروب متعاقبة لعل أقربها الى عهـده تلك الحروب والغزوات التى أثارها الأمير سيف الدولة توطيـداً للكيان العربى وصونا لثغور الشام من الغزو البيزنطى . . .

وإذا كانت الأيام لم تسعد المعرى أن يرى المجد الشامخ الذى شاده الأمير الحمدانى فى السياسة القومية والحياة العقلية،فقد شاهد ، وهذا مازاد فى محنته ، لونا من ضعف الساسة وفساد الرأى فى ابنه سـعد الدولة ، وفى حفيده أبى الفضائل . وإذا تركنا الـكلام عن ابن سيف الدولة لأن ملـكه لم يطل ولم يتميز بالاحداث الخطيرة ، فنرجو أن يطول حديثنا قليلا عن حفيده أبى الفضائل ، فقد انتهى حكم الدولة الحمدانية والدنيا العربية على ما وصفنا ، ولم يكن أبو الفضائل كجده بل كانت مطامحه منحصرة فى الملك ، دون أن يعطى للمملكة حقها من التضحية والبذل ، أى كان يريد أن يحتفظ بصولجان الملك رخيصاً ، وكانت أهدافه تختلف كل الاختلاف عن أهداف جده ـ هذا يفكر

فى مجد أمتـه و بلاده ، وذاك فى مجده الشخصى ، والفرق جد بعيد بين الاتجاهين . . وإذ كانت بلاد الشام تتمتع بالحكم الذاتى على أيدى أمراء مختلفى المنازع والأهواء فقد فكر الفاطميون فى ضمها إلى مصر لاسيا بعد أن تضاءل سلطان بغداد الروحى كما تضاءل سلطانها السياسى . .

وقد عزز هذه الفكرة الرغبات التى أثارها بعض زعماء حلب الناقمين على حكم أبى الفضائل من جهة ، وإغراء الوزير المغربى للخليفة الفاطمى بوجوب الاستيلاء على حلب وأطرافها من جهة أخرى ، ونزلت هذه الرغبات من نفس عزيز مصر منزلة طيبة ، فجهز حملة كبرى إلى بلاد الشام لضمها إلى المملكة الفاطمية . وناط أمر هذه الحملة بأحد غلمانه الأتراك الذى استطاع أن يخضع البلاد الشامية كلها دون حلب التى امتنعت على مصر للخلة المزرية التى انتهجها أميرها .

ماذا ؟

استغاث أبو الفضائل بباسيل الثانى أمبراطور الروم لمحاربة الفاطميين . . وبذلك اقترف أكبر غلطة سياسية بهذه الصلات التى خلقها مع أعداء البلاد الطبيعيين ، فهدم الحفيد بيديه الأثيمتين مابناه الجد . . أى هدم هذا ؟ لقـد مد يده الى الأجنبى ـ تحقيقاً

للنزوات الشخصية الهائجة والأنانية السوداء ، وقال له :

إن البلاد مفتوحة الصدر لكم . فهيا ادخلوها مطمئنين قبل أن يزيلني ملك مصر الفاطمي عن عرش آبائي وأجدادي . .

وتتالت الأحداث والحروب مدة أربع سنوات كاملة بين البيزنطيين والفاطميين كتب فيها النصر للفاطميين أولا ثم للبيزنطيين الذين بسطوا سلطانهم على بلاد الشام بفضل هذه المعاهدة أو بفضل هذا الخضوع المزرى لأعداء الدين واللغة والعادات والوشائج والدم، ولم يقف الفاطميون موقف المتفرج من هذه الأحداث بعد أن مست سلطتهم، بل جهزوا حملة ثانية لدفع البيزنطيين عن بلاد الشام، فنجحوا وسقطت حلب في أيدى الفاطميين الذين قضوا على السياسة الخرقاء التى انتهجها أبو الفضائل الذى اعتمد ، مع وزيره لؤلؤ ، على الأجنبي في توسيع شقة الخلاف بين مصر والشام .

وهكذا ، فقد مثلت ، فى تلك الفترة ، وفى بيئة المعرى ، رواية من أفجع مآسى التاريخ هى نتيجة هذا الاضطراب السياسى الذى ساد البلاد العربية كلها . فقد كانت الأطماع تتهدد بلاد الشام من الشمال ومن الجنوب ، أما أطماع الجنوب فمهما قيل عنها ، فهى في اعتقادى هينة يسيرة ، هى أطماع الفاطميين الذين يحكمون مصر

وهم يمتون إلى العروبة بنسب عريق . أما أطماع الشمال فهى السيف يحز العنق — أطماع الأعداء الطبيعيين لهذه الأوطان التى حماها سيف الدولة فترة غير قليلة من مطامعهم فجاء أبو الرذائل — أريد حفيده المسمى أبا الفضائل — يفتح صدره لهم ويمهد الأسباب لدخول أعظم ثغور المملكة الإسلامية .

وإن كتب التاريخ لتقص لنا هذه الفترات بما يدمى القلب ويدمع العين . وليس كالأديب رجل تعاف نفسه شرور السياسة وشرور الحروب والقتال . . وقد فكر في بقعة تكون فى معزل عن هذه الشرور ، فرأى بغداد أهدأ حالا من الشام ، وهى الى هذا كعبة العلم والأدب ، فشد اليها الرحال . ومكث فيها سنة وبعض سنة فما الذى أفاده من هذه الرحلة التى تركت في نفسه أجمل الذكريات ؟ لقد خرج بفكرة لاغموض فيها ، وهى أن الانسان ، بالرغم مما لقيه من كرم البغداديين وحسن وفادتهم ، هو هو فى جبلته وطبيعته ، وأن الحكام هم هم فى كل مصر ووطن . وانتهى إلى الرأى تلاقى وروح فلسفته الحزينة التى تقوم على الشك واليأس :

وإن الشام مذ زمن صفران مابهما للملك سلطان
شياطين مسلطة فى كل مصر من الوالين شيطان

وعاد الى وطنه ، و إذا التنافس على أشـده ، وحلب تشهد من جديد هذا الصراع الدامى فى أرضها ؛ وشهد أبو العلاء هذا الصراع بين أحفاد الحمدانيين أو غلمانهم والمتغلبين من أعراب الشام وعلى رأسهم صالح بن مرداس ، ثم بين المرداسيين والفاطميين ؛ وأخيراً بين المرداسيين وغلمانهم الذين ثارت فى نفوسهم شهوة الحكم أيضاً مما لا يسمح المجال لأن نقص تفاصيله باسهاب .. نعم ، شهد فيلسوفنا الحكيم هذا الصراع الدامى المتعاقب ، وبديهى أن تؤلمه هذه الأحداث وأن يكون لعواملها الأثر الأكبر فى فلسفته وأدبه .

فأبو العلاء أديب حساس ، وشاعر عميق التفكير وفيلسوف حر ذو نظرة نافذة ، رأى وطنه نهباً للأهواء والشهوات ، ورأى البلاد العربية وقد انتهت الى ما انتهت اليه من الضعف والاضطراب والفوضى — بديهى أن يؤثر ذلك في أدبه ، وأن تشيع روح السخرية فى هذا الأدب ، وأن يقسو قسوة مرة على من يظهرون بصور من ملائكة الرحمن بينما هم أبالسة فى إهاب إنسان .

لقد آلمته هذه الأحداث العاتية التى هزت البلاد العربية من بأقصاها الى أقصاها .. ولعله فكر بالنزوح عن وطنه .. ولكن الى أين والدنيا العربية فى لهيب محترق من الفوضى .. لقد فكر بالهجرة

الى الحجاز .. ولكن ..

أما الحجاز فما يرجى المقام به ... لأنه بالحرار الخمس محتجز[(١)]
والشام فيه وقود الحرب مشتعل ... يشبه القوم شدت منهم الحجز[(٢)]
وبالعراق وميض يستهل دما ... وراعـد بلقاء الشر يرتجز

إلى أين يذهب ؟

كل البلاد ذميم لا مقام به ... وان حللت ديار الوبل والرهم
إن الحجاز عن الخيرات محتجز ... وما تهامة إلا معدن التهم
والشام شوم وليس اليمين في يمن ... ويثرب الآن تثريب على الفهم

كان يفكر فيلسوفنا بالهجرة الى أية بقعة عربية قد خلت من فساد عصره ومخازيه ، وقد ود أكثر من مرة الخلاص من هذا المأزق :

كيف التخلص والبسيطة لجة ... والجو غيم بالنوائب يسجم
فسد الزمان فلا رشاد ناجم ... بين الأنام ولا لاضلال منجم

الى أين يذهب وكل أرض قد ملئت بالمفاسد والشرور ؟

قبع فى بيته ، فى سجنه الضيق ، وأخذ يرسل صيحاته الصادقة

---

(١) والحرار ، جمع حرة وهى أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار ، والحرار الخمس : هى حرة شوران ، وحرة ليلى ، وحرة واقم ، وحرة النار ، وحرة بنى سليم (٢) الحجز جمع حجاز وهو كل ما تشد به وسطك لتشمر ثيابك .

فى تصوير طباع البشر — طباع أولئك المسيطرين على دفة السياسة، المتربعين على دست الحكم وقد نسوا أمنيات شعبهم ، ونسوا أولى واجباتهم كخدام للمصلحة العامة ، فكانوا مطية الأهواء ومطية الشهوات دون أن يفكروا بالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتقهم وهى خدمة الشعب وإنهم أجراؤه لا أسياده :

مل المقام فكم أعاشر أمة   أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وليس كالمعرى أديب شاعر عرف سجايا البشرية وطواياها فوصفها أبلغ وصف كما وصف هذه الشهوات التى كانت لا تعرف غير النهب والاستلاب . فكان ، رغم عزلته ، ذا اتصال مباشر بهذه القضايا التى تشغل الشعب سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الخلقية . . .

فى الواقع ، أن أبا العلاء قد اعتزل البشر ، ولكن هل كان هذا الشيخ الوقور الذى يعتبر حكيم العصر وفيلسوفه بحق ؛ بعيداً عما يمثل على مسرح البشرية ؟ . . كلا . إن عزلته لم تحصنه عن شكاوى الأفراد والجماعات . وكانت شخصيته الفذة تجتذب الناس على اختلاف طبقاتهم الى سجنه المتواضع ، يحل قضاياهم ومعضلاتهم

ويتوسط لدى أولى الأمر برفع ظلاماتهم . وقصة عصيان أهالى المعرة على سياسة أمير حلب صالح بن مرداس ، وإلقائه القبض على سبعين شخصاً من زعمائها ، وتجهيز حملة للقضاء على مثيرى تلك الفتنة ولجوء كبار القوم الى أبى العلاء ليشفع لهم لدى صالح وقبول ابن مرداس شفاعته . — إن هذه القصة تدل دلالة بالغة على أنه كان على اتصال بما يجرى على مسرح السياسة ، وأن القوم لم يتركوه يتمتع بعزلته . وهذا ما كان له أكبر الأثر فى أدبه ، ولو اعتزل البشر حقا كالرهبان المتبتلين أو الصوفيين المتجردين لكان لون أدبه يختلف كل الاختلاف عن هذا اللون المغموس بأعماق النفس البشرية .

وفى اللزوميات ، وفى رسائله نقرأ الكثير من هذه اللمزات التى تصف اضطراب السياسة ، وسوء الادارة ، وفساد الحكم .

فالسياسة التى تسير على الأهواء والنزوات ، ولا تستند على الفكر الرجيح المتزن — هى فى نظره — سياسة خرقاء . .

يسوسون الأمور بغير عقل ‏ ‏ فينفذ أمرهم ويقال ساسة

فأف من الحياة وأف منى ‏ ‏ ومن زمن رئاسته خساسة

هذه السياسة المضطربة التى غمرت بيئته وكل بقعة من الأرض

العربية هي التي كانت تستثيره ليصف هذه الأهواء الجامحة . لقد تساءل أكثر من مرة كيف لا يثور الشعب ضد تلك السياسة الغاشمة؟ كيف يدفع الأفراد الضرائب والمكوس وهم يشاهدون ملوكهم وقد أصبحوا عبيد الشهوات واللذاذات . .

وأرى ملوكا لا تحوط رعية فعلى م تؤخذ جزية ومكوس ؟

* * *

وجدت الناس في هرج ومرج غواة بين معتزل ومرجى
فشأن ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الأمرر جباة خرج

* * *

أتعجب من ملوك الأرض أمسوا للذات النفوس عبيد قن

فيا لذلك العصر الذى عاش فى صميمه ، لا هم لملوكه وزعمائه إلا لذاذاتهم وأهواؤهم ، وإلا مصادرة أموال الناس ، وإشاعة الفوضى فى البلاد . والزيغ فى قرارة النفوس ـ هذا العصر المضطرب الذى عاش فى أعاصيره وأهوائه قد جعله ، ونفسه أميل الى التشاؤم ، ينظر إلى الدنيا هذه النظرة السوداء ، ويراها على حقيقتها ، أى أن شرورها يرى أغلب . .

عرفت سجايا الدهر أما شروره فنقد ، وأما خيره فوعود
إذا كانت الدنيا ، كذاك فخلها ولو أن كل الطالعات سعود

رقدنا، ولم نملك رقاداً عن الأذى ... وقامت بما خفنا ونحن قعود

* * *

قالوا فلان جيـــد لصديقه ... لا يكذبوا . . مافى البرية جيد

فأميرهم نال الإمارة بالخنا ... وتقيهم بصــــلاته متصيــــد

لقد سئمت نفسه هذه المخازى — هـذا التنازع على إمارات كاذبة ، هذه المذاهب الاجتماعية والسياسية التى شاعت فى عصره والتى كانت فى مظهرها ذات رواء جميل . . ولـكن من هم رجالها من لا تطمئن إليهم النفوس . . من صميم الشعوبيين [1] .. كان يرى

(١) كان ينكر الشعوبيون كل فضل للعرب ، وقد شبه أحد الكتاب مبادئهم بمبادىء الشيوعيين فى عصرنا هذا . « وكان الشعوبيون يقولون بمساواة الأفراد والطبقات ، ومن أقوالهم فى الرد على العرب أن النبي نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف مللهم بقوله : « ليس لعربى على عجمى من فضل إلا بالتقوى » . وكان الشعوبيون ينوبون بدفاعهم عن كل أمم الأرض فى ذلك العهد — أى فى العصر العباسى — الا العرب ، فاذا افتخروا بملوكهم ذكروا الفراعنة والنماردة والعمالقة والاكاسرة والقياصرة وافتخروا بسليمان الحكيم والاسكندر الكبير وبملوك الهند . واذا فاخروهم بالانبياء والمرسلين ذكروا الانبياء من آدم الى أيامهم . واذا فاخروا بالعلم والصناعة والفلسفة ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والاسطرلاب وفخروا بفلسفة اليونان واشعارهم وعلومهم، وعلوم الهند والفرس وغيرهم .

وذكر صاحب العقد الفريد أنه بلغ من جرأة بعض أنصار الشعوبية أنهم كانوا يقولون : « ما الذى تفخر به العرب على العجم ، فانما هى كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون فى حلق الأسر ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل » واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وتظلموا المطاعن فيهم ، مع أن الكثيرين من كتاب العرب ومؤرخيهم تصدوا للرد على الشعوبية ومنهم ابن قتيبة فى « تفضيل العرب » الهلال سنة ٤٣ ص ١٢٢٣

فى هذه المذاهب الشائعة التى سادت عصره وسيلة للسيطرة والحكم، فما كان أصحابها ليقصدون المثل العليا فى مذاهبهم التى ابتدعوها ودعوا إليها ، سواء منهم القرامطة (١) أو غيرهم .

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

أولئك الرؤساء الذى عرف خبيئة طواياهم فازدراهم شر ازدراء ، هم الذين كانوا يثيرون الفتن والحروب فى سبيل مطامعهم الدنية وأمجادهم الكاذبة .

كانت هذه الفتن وماتجره وراءها من إرهاق — تستثيره ضميره . فما كان شعوره المرهف يتحمل أية مظلمة ، وهو الذى عاش فى أفق واسع من فرديته الحرة برغم سجونه الثلاثة — هذا الثائر الحر الذى انتصب يدافع عن كرامة العقل ، وعن حرية الفرد وحرية الجماعة ، قد أهاب بالانسان أن يثور على المظالم ، وطلب إلى المفكرين الذين يساهمون فى سياسة الدولة أن يتحرروا هم أيضاً

---

(١) فرقة من الباطنية ، والباطنية هم الاسماعيلية ، وانما لقبوا بهذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا . هذا هو الوجه الظاهر لعرتهم أما الحقيقة فهى فرقة سياسية غايتها قلب نظام الحكم . وكان رئيسها عبد الله بن ميمون ، وهو فارسى يكره العرب . استطاع أن يؤلف بين أهل الايمان وبين الزنادقة . وأن يجعل منهم حزباً يعمل على قلب الدولة العباسية .

من الرياء الاجتماعى وألاّ يكونوا آلات مسخرة فى أيدى العتاة ، يميلون مع الهوى دون أن يستجيبوا لنداء الضمير . لقد غمز الأدباء والشعراء والخطباء — الخطباء الذين يصفون الأمير بالتقوى أيام الجمع على حين أنه فى الهوى والضلال . .

ما أجهل الأمم الذين عرفتهم ولعل سالفهم أضل وأتبر
يدعون فى جمعاتهم بسفاهة لأميرهم ، فيكاد يبكى المنبر

نعم يكاد يبكى المنبر من ضلالات ذلك الخطيب المرائى الذى يخدع الجماعات ويصور لها الحالة على غير حقيقتها ، لا فى الشؤون السياسية بل فى الشؤون الاجتماعية ، فيصفه بقوله :

طلب الخسائس وارتقى فى منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة أمسى يمثل فى النفوس ذهولها

والأدباء والشعراء . . هل يؤدون رسالتهم السامية فى هذا المصطرع الصاخب كما يؤديها هو ؟ إن رسالة الأدب رسالة مقدسة لايجوز التهاون بها . . وكما غمز الخطباء المشعوذين، فقد غمز الشعراء المداحين الذين يتخذون الشعر آلة لتشويه الحقائق الساطعة .

بنى الآداب غرتكم قديماً زخارف مثل زمزمة الذباب
وما شعراؤكم إلا ذئاب تلصص فى المدائح والسباب

لقد اضطرب كل شيء في نظره — اضطربت مقاييس الحياة واختل النظام ، ولم يعد ينظر إلى الحياة إلا هذه النظرة السوداء البغيضة التي تنطوي فيها خيوط فلسفته التشاؤمية .

قد اختل الأنام بغير شك فجدوا في الزمان أو العبوه

نعم ، كل شيء عنده يدعو إلى اليأس ، فالحياة رواية من الروايات الكاذبة ، والإنسان يخادع أخاه الانسان ، اليوم يرتفع به إلى السماء ، وغداً يشك بنزاهة قصده فيهبط به إلى مواطيء الأقدام ...

حياتك هجعة : سهد ونوم ورؤيا هاجع ما أنقته
فمن حلم يسرك أبطلته ومن حلم يضرك حققته
وكم أدى أمانته إليها أمين خونته وسرقته
وقائم أمة زكته عصراً فلما أن تمكن فسقته

هذه هي أدواء الجماعات لا تكاد ترتفع بالرجل الذي أحبته حتى تهبط به الأرض ، لا تكاد تؤلهه حتى تعتبره رمزاً للخيانة .

وبعد ، فقد كدنا ننتقل من تصوير عصره إلى آرائه في الحياة ولكن هل هذه الآراء إلا صورة ذلك العصر بالمخازي والموبقات مخازي السياسة الرعناء التي كان لها أبلغ أثر في انهيار الأمة العربية ذلك الانهيار الذي ذاقت مرارته العصور الطوال . . نعم ، كدنا

ننتقل من تصوير الاضطرابات فى عصره السياسى إلى آرائه فى الحياة تلك الحياة التى سئم أوضارها وأضاليلها، فنظر إليها هذه النظرة الفلسفية المتعالية . . كيف يحتمل هذه المخازى ؟ كيف يدفع هذا الطغيان ؟ لا حيلة له إلا الشعر — هذا الينبوع الثر الذى يبرد غليل الموتورين المتشائمين . .

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
والشر فى العالم حتى التى مكسبها من فضل عرناسها
وكل حى فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

وبعد فنتساءل : وقد عاش شاعرنا الحكيم فى سجوف هذا اليأس الحزين يهدم وينقد ويهاجم ، هل كانت له رسالة فى الحياة ؟ ما لون هذه الرسالة ؟ كيف يريد أن يكون العالم ؟ لقد أراد له الخير المحض . وأراد له العدالة الاجتماعية المطلقة ، وأراد الهناءة المثلى للبشرية ، فهل تحققت رسالته ؟ كلا .. فقد اصطدمت هذه الميول الطيبة بغريزة الإنسان ونزعته الشريرة — فتراءت له الدنيا ، فى مرآة تشاؤمه ، وعلى ضوء الأحداث التى واجهت عصره — صورة من المآثم والشرور ، فيئس ، وجره هذا اليأس الحزين إلى العزلة — تلك العزلة التى أنتجت للأدب الحى ثروة خالدة ترمز الى جبروت

فى سـ
و اللذاذا
سى ء فى بيئه
ومزاجه السود
ما كان لهذه الحي
يعتبر نسيج وحده بين ا داب
الكثير من الآراء والفكرات والصور التى تتدى
ماخلده أ كابر أدباء العالم فى مختلف العصور . نعم ، إننا نجد مثلا
فى حدائق أبى العلاء العابسة الكئيبة تشاؤم شو بنهور وسخرية
أناتول فرانس والكثير من هذه المذاهب والفكرات الشائعة فى
عصرنا هذا ؛ ففلسفته لم تقف عند واحات الزهد والعزلة بل تعدتها
إلى الأخلاق والسياسة و الاجتماع و الدين والإنسان والخالق ؛ فأ
رأيه صريحاً فى جميع ظواهر الحياة ، ما ظه
الاشترا كية التى